روائع الأدب العالمي
33

المقعد المسكون

تأليف الكاتب الفرنسي

جاستون ليرو



المقعد المسكون

المقعد المسكون

تأليف
كاستون لورو

ترجمة
دائرة الترجمة في الدار

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق – بيروت
ص.ب 5329-13 بيروت – لبنان
تلفون : 674 803 1 961 00 فاكس : 223 790 1 961 00
E-mail : darbachir@terra.net.lb

الإسم الأصلي للكتاب

LE FAUTEUIL HANTE

إسم المؤلف

Gaston LEROUX

الغلاف بريشة الفنان

فيصل عبيد

المقدمة

هذه واحدة من أمتع الروايات من الأدب الكلاسيكي الفرنسي التي تدور في جو من الغموض المقرون بالفكاهة. وتجري أحداثها في الأكاديمية الفرنسية حيث تضم أعظم العلماء في فرنسا. ليجري الصراع ما بين الواقع العلمي والخرافة التي تدور حول عالم الأرواح والقوى الخفية وتجري ثلاث حالات وفاة لثلاثة مرشحين لشغل مقعد الأستاذية الذي كان يشغله "**مطران دابيفيل**" وتأتي ملابسات الوفيات الثلاث متشابهة قبل القاء خطاب تأبين "**مطران دابيفيل**" من المرشح وتتوافق مع تهديدات أحد المرشحين الذين فشلوا في الحصول على المقعد ممن يمارسون العلوم الروحانية بأن أي شخص يحاول الجلوس على مقعد "**مطران دابيفيل**" سيموت.

أحداث وملابسات مثيرة وغامضة صاغها الكاتب بأسلوب رائع توخى فيه الغموض أيضا باستخدام الجمل المعقدة المليئة بالجمل الاعتراضية لينقل القارئ في متاهة ويعود به إلى البداية.

إنها رواية من أمتع روايات الغموض والإثارة المقرونة بالفكاهة الشديدة.

شخصيات الرواية

"**جاسبار لالويت**" : تاجر لوحات وعاديات قديمة.

"**هيبوليت بانارد**" : السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية.

"**جيهان مورتيمر**" : أول المرشحين لشغل كرسي الأستاذية الذي خلا بموت "**مطران دابيفيل**".

"**ماكسيم دالني**" : ثاني المرشحين.

"**مارتان لاتوش**" : ثالث المرشحين.

"**اليڤاس دي نوكس**" : ساحر شرير ممن يمارسون علم الروحانيات وتحضير الأرواح.

"**بابيت**" : مربية عجوز متسلطة ومتوحشة تسيطر على "**مارتان لاتوش**" عالم التاريخ الموسيقي.

"**لوستالو العظيم**" : مدير الأكاديمية الفرنسية.

الفصل الأول

موت بطل

– إنها لحظة رهيبة يمر بها المرء..

- بلا شك، ولكنهم يقولون إن الرجل لا يخاف شيئا!

– هل لديه أطفال؟

– لا إنه أرمل!

– هذا أفضل!

– ثم يجب على أية حال أن نتعشم أنه لن يحس بذلك؟ ولكن دعنا نسرع!

عندما سمع هذه الكلمات الجنائزية السيد "**جاسبار لالويت**" الرجل الشريف وبائع اللوحات والعاديات القديمة والمقيم منذ عشر سنوات في شارع "**لافيت**" والذي كان يتنزه في هذا اليوم في شارع "**فولتير**" يفحص فترينات بائعي اللوحات المحفورة القديمة و"الروبابيكيا" عندما سمع ذلك الحديث رفع رأسه.

كان في تلك اللحظة قد تعثر في حرف الرصيف الضيق واصطدم بمجموعة من ثلاثة شبان يرتدون بيريه الطلبه والذين أتوا من ناحية شارع "**بونا بارت**" وكانوا يثرثرون ولم يهتموا بأن يعتذروا.

وكان السيد "**جاسبار لالويت**" خائفا من أن تنشب معركة شرسة فقد احتفظ لنفسه بمزاجه المتعكر الذي أحسه عند هذه الحركة غير المتحضرة وظن أن الطلبة يسرعون ليلحقوا مباراة يخشون أن تفوتهم.

ثم استأنف فحصه الدقيق لخزانة مزخرفة زعم صاحبها أنها ترجع إلى تاريخ "**سان لويس**" وربما كانت تحوي كتاب مزامير السيدة "**بلانس دي كاستيل**" وعندها سمع صوتا يقول:

– مهما يمكن أن نظن فإن الرجل كان شجاعا.

رد عليه صوت آخر:

– يقولون إنه دار حول العالم ثلاث مرات! ولكن في الحقيقة أحب أن أكون في

وضعي وليس في وضعه. وعسانا ألا نصل متأخرين!

استدار السيد "**لالويت**" . مر عجوزان واتجها نحو المعهد وهما يحثان الخطوات. فكر السيد "**لالويت**" ما هذا الذي حدث.. هل العجائز أصبحوا أكثر جنونا من الشباب؟ وها هما اثنان يبدو لي أنهما يهرعان إلى نفس الموعد المخجل الذي يجري إليه تلاميذي.

لقد كان السيد "**لالويت**" في سن الخامسة والأربعين وهو السن الذي فيه المرء لا هو بالشاب ولا بالعجوز.

كان ذهنه هكذا مشغولا واقترب من ناحية شارع "**مازاران**" وربما كان سيدخل في ذلك الشارع المتعرج لولا أن أربعة من السادة مرتدين حللهم الردينجوت والقبعات العالية ومحفظة أوراق جلدية مغربية تحت أذرعهم، يمكن اعتبارهم أساتذة وجدوا أنفسهم وجها لوجه معه وهم يصيحون ويلوحون.

- لا تجعلني أظن على أية حال أنه مات بلا وصية.

- إذا لم يكن قد فعل فهو مخطئ.

- عندما جاء أصدقاؤه ليقنعوه بمصيره طردهم.

- ولكنه كان في آخر لحظة سيتراجع عن رأيه.

- هل تعتبرونه جبانا.

- انظروا ها هو ذا.. ها هو ذا!

ثم أخذ الأساتذة الأربعة في العدو عابرين الشارع واللسان وحجبوا الرؤية عن الناصية المطلة على كوبري الفنون.

ترك السيد "**جاسبار لالويت**" في الحال حوانيت "**الروبابيكيا**" . ولم يعد يتملكه سوى فضول واحد وهو معرفة الرجل الذي كان سيضحي بحياته لأسباب وظروف لا يعرف عنها شيئا بعد،، ولكن الصدفة هي التي جعلته يرى فيها أعمالا بطولية.

اختصر الطريق تحت البواكي الخاصة بالمعهد لينضم إلى الأساتذة ووجد نفسه في الحال في الميدان الصغير حيث يوجد فيه الأثر التذكاري الوحيد يحمل على رأسه قلنسوه صغيرة تسمى عادة قبة كان الميدان مليئا بالناس. وكانت الفرق تسرع إليه وسط صياح الحكام والباعة الجائلين.

وتحت القبة التي تؤدي إلى الفناء الأول للمعهد كان جمهور صاخب يحيط بشخص

يبدو أنه يجد صعوبة بالغة في التخلص من تلك الدائرة الخانقة والمتحمسة. وكـــان الأساتذة الأربعة موجودين هناك يصيحون "حسنا!".

أمسك السيد "**لالويت**" بقبعته في يده وتوجه إلى أحد السادة وسأله في خجل بالغ أن يتفضل ويشرح له ما يجري. والذي رد:

– آه.. أنت ترى جيدا.. إنه قبطان السفينة "**ماكسيم دالني**"!

سأل "**لالويت**" مرة ثانية في أدب جم:

– وهل سيشترك في مبارزة؟

– ولكن لا! إنه سيلقى خطابه في حفل استقبال الأكاديمية الفرنسية!

كان الأستاذ يرد عليه في ضيق. وفي أثناء ذلك وجد السيد "**جاسبار لالويت**" نفسه معزولا بواسطة موجه هائلة من الناس. إنهم أصدقاء"**ماكسيم دالني**" الذي بعد أن صحبوه وقبلوه في انفعال حاولوا الدخول إلى القاعة الخاصة بالعروض الجماهيرية. لقد كانت عملية صراع قوي؛ لأن بطاقاتهم الشخصية لم تنفعهم بشيء والبعض منهم اتخذ الحيطة العاقلة. وكانوا قد حجزوا أماكنهم بواسطة أشخاص مستأجرين لهذا الغرض. لأن هؤلاء الذين حضروا من أجل الآخرين ظلوا على ما هم عليه. وكان الفضول الذي كان أقوى من اهتمامهم جعلهم مسمرين عند الأبواب ومع ذلك لما كان السيد "**لالويت**" قد وجد نفسه بين مخالب الأسد المسالمة والمصنوع من الحجر والذي يسهر على عتبة "**الخلود**" فإن أحد الموظفين وجه له الكلام:

– إذا أردت الدخول يا سيدي فادفع عشرين فرنكا وبما أن السيد "**جاسبار لالويت**" تاجر ومقتني اللوحات و"الروبابيكيا" بطبيعته كان يكن احتراما كبيرا للأدب وهو نفسه مؤلف. لقد نشر مؤلفين كانا فخر حياته أحدهما حول التوقيعات للرسامين المشهورين والطرق للتعرف على أصالة أعمالهم. والثاني: حول فن البروزة لصنع الإطارات، والذي بعده عين موظفا في الأكاديمية. ولكنه لم يدخل الأكاديمية على الإطلاق وبالأخص تلك الفكرة التي كونها حول الخطابات العامة في الأكاديمية لا يمكن أن تتفق مع كل ما سمعه في التو ورآه من ربع ساعة. مثلا لم يفكر إطلاقا أنه صالح وجيد لإلقاء خطبة افتتاح وأن يكون أرملا بلا أطفال وألا يخشى شيئا وأن يكتب وصيته. دفع العشرين فرنكا ووجد نفسه بعد مئات اللكزات وقد استقر كيفما اتفق داخل منبر فيه كل الناس واقفين وهم

ينظرون إلى القاعة.

كان "**ماكسيم دالني**" الذي دخل ووجهه شاحب بعض الشيء وعلى جانبيه كفيلاه الكونت "**دي براي**" والأستاذ "**باليسو**" وهما أكثر شحوبا منه. هزت رجفة طويلة الحضور والنساء اللاتي كن عديدات ومن المختارات لم يستطعن كبح حركة إعجاب وشفقة عليه. وقفت إحدى الراهبات المؤمنات ونهض الجميع فوق المدرجات؛ لأن كل تلك العاطفة كانت محترمة بلا حدود تماما كما يحدث للميت الذي ينتقل إلى العالم الآخر.

وصل العضو الجديد إلى مكانه وجلس بين حارسيه الشخصيين ثم رفع الرأس وتجول بنظرة صارمة إلى زملائه والحضور والمكتب وأيضا إلى الوجه الحزين للعضو المبجل في المجلس المحترم المكلف باستقباله.

عادة كان الشخص الأخير لكل هذه المراسم له جسد متوحش ويتعرض لكل العذابات التي أعدت له والتي تجاوزت كل المراحل. في ذلك اليوم كان مظهره مثيرا للشفقة مثل المعترف بالذنوب الذي جاء ليحضر مريضا في الرمق الأخير.

كان السيد "**لالويت**" وهو يتأمل تلك القبيلة المرتدية أوراق شجر البلوط لم يفقد كلمة واحدة مما كان يقال أمامه. كانوا يقولون:

- إن ذلك المسكين "**جيهان مورتيمر**" كان شابا ومليحا مثله!
- وسعيدا لأنه انتخب.
- هل تتذكرون عندما نهض ليلقي خطابه؟
- لقد بدا مشرقا.. لقد كان مليئا بالحياة.
- كان بالإمكان أن تقول: لقد كانت ميتة طبيعية.

لم يستطع السيد "**جاسبار لالويت**" أن يسمع أكثر من ذلك دون أن يلتفت إلى جاره ليسأله عن أي ميتة يتحدثون هناك وقد اعترف بأن هذا الذي وجه إليه الكلام لم يكن سوى الأستاذ الذي من قليل سبق أن أعلمه بطريقة تهكمية. هذه المرة أيضا لم يدار احتقاره ومللـه:

- ألا تقرأ الصحف يا سيد؟
- إية! حسنا.. لا.. إن السيد "**لالويت**" لا يقرأ الصحف! وكان لهذا سبب ستتاح لنا

الفرصة أن نقوله فيما بعد. وإن السيد "**لالويت**" لا يصيح فوق الأسطح. ولكن فقط لأنه لا يقرأ الصحف فإن السر الغامض –الذي تورط فيه عند دخوله مقابل عشرين فرنكا إلى ما تحت القبـة.. قبة المعهد– أصبح ثقيلا أكثر فاكثروهكذا لم يفهم شيئا من هذا النوع من الاحتجاج الذي يرتفع عندما تدخل سيدة نبيلة يسميها الجميع السيدة "**بيشبني**" الحسناء إلى المقصورة المحجوزة لها. لقد كانوا يعتبرونها بصفة عامة وقاحة جميلة. ولكن السيد "**لالويت**" لم يعرف لماذا هذه التسمية. إن تلك السيدة تنظر إلى الحضور بغرور بـارد. وتوجه بعض الكلمات المختصرة إلى شباب يصاحبونها وتتفرس بمنظارها المقرب السيد "**ماكسيم دالني**". صاح أحدهم:

– إنها ستجلب له النحس!

وكرر الجمهور في همهمة عامة:

– نعم.. نعم.. إنها ستجلب له النحس!

سأل السيد "**لالويت**":

– لماذا ستجلب له النحس؟

ولم يرد عليـه أحـد. كل الذي استطاع أن يعلمه بشكل شبـه يقين هو أن الرجل الموجود هناك والمستعد لإلقاء خطابه اسمه "**ماكسيم دالني**" وأنه كان قبطان سفينة وأنه كتب كتابا عنوانه "**رحلة حول كابينتي**" وأنه انتخب لشغل الكرسي الذي كان يشغله من قبل "**مطران دابيفيل**". ثم السر الغامض بدأ مع الصرخات المجنونة والحركات المخبولة. وكان الجمهور في القاعة والمقصورات ينهضون ويصيحون أشياء مثل: مثل الآخر! لا تنس! آه! الخطاب... مثل الآخر! ... مثل الآخر... لا تقرأ..

مال السيد "**لالويت**" ورأى حاجبا يحضر خطابا إلى "**ماكسيم دالني**". وكان ظهور ذلك الحاجب وذلك الخطاب بدا وكأنه أخرج الجمهور عن شعوره، فقط أعضاء المكتب هم الذي أجبروا أنفسهم على الاحتفاظ بقوة أعصابهم ولكن كان من الواضح أن السيد "**هيبولايت بانارد**" السكرتير اللطيف والدائم كان يرتجف بكل أعضائه ويهز أوراق البلوط. أما بالنسبة لـ"**ماكسيم دالني**" فقد أخذ من بين يدي الحاجب الخطاب ثم فتحه. ابتسم بكل أسنانه. ثم لما كان العرض لم يبدأ بعد بسبب انتظار السيد المستشار، فقد ابتسم وقرأ بينما في المقصورات كان الكل يردد:

– إنه يبتسم.. إنه ابتسم.. الآخر أيضا ابتسم.

ناول "**ماكسيم دالني**" الخطاب إلى كفيليه اللذين لم يبتسما. وسرعان ما أصبح النص على كل الأفواه وأصبح من فم إلى أذن إلى أذن إلى فم حول القاعة. وعرف السيد "**لالويت**" ماذا يحويه الخطاب. هناك رحلات أخطر من تلك التي نقوم بها حول الكابينة.

ويبدو أن ذلك النص بلغ بالانفعال مبلغه داخل القاعة وعندما سمع صوت الرئيس المثلج يعلن بعد بعض الطرقات على الجرس أن العرض بدأ.

ساد صمت ثقيل تراجيدي في الحال على الحضور، ولكن "**ماكسيم دالني**" كان واقفا أكثر من شجاع وها هو يبدأ قراءة خطابه. قرأ بصوت عميق ورنان. شكر أولا دون تواضع الشركة التي منحته شرف استقباله ثم بعد تلميح قصير إلى مبارزة كانت قد صدمت مؤخرا الأكاديمية حتى النخاع تحدث عن "**مطران دابيفيل**". تحدث وتحدث.

وبجانب السيد "**لالويت**" همهم الأستاذ إياه بين أسنانه تلك العبارة التي اعتقد السيد "**لالويت**" بسبب عدم سماعه بقيتها وقد ألهمه طول الخطاب: "أنه يستغرق وقتا أطول من الآخر، إنه يتكلم ويبدو أن الحضور كلما تكلم فإنه أخذ يتنفس أفضل. وسمعت زفرات النساء وآهاتهن وابتسمن وكأنهن نجون من خطر داهم. أخذ يتكلم ولم تقاطعه أي حادثة غير متوقعة ووصل إلى نهاية رثاء السيد "**ماجردابيفيل**" وتحمس وزادت سخونته عندما وصل إلى مناسبة مواهب المطران المبجل. أذاع بعض الأفكار العامة حول البلاغة المقدسة. وأثار الخطيب ذكرى مواعظ معينة رنانة أثارت ضد صاحب النيافة مطران "**دابيفيل**" عواصف دنيوية بسبب نقص احترامه للعلوم الإنسانية.

وكانت حركة عضو الأكاديمية الجديد قد اتخذت أهمية غير عادية كأداه لضرب وجلد هذا العلم ابن الكفر والغرور!

وفي دفعة مثيرة للإعجاب والتي كانت بالتأكيد لا صلة لها بالعمل الأكاديمي ولكنها لم تكن إلا أجمل منه، لأنه عمل من بحار من المدرسة القديمة عندما صاح "**ماكسيم دالني**":

– منذ ستة آلاف عام يا سادة استمر الانتقام المقدس. وإله النار "**بروميثيوسي**" فوق صخرته وأنا لست من هؤلاء الذين يشكون في رعد الرجال. أنا لا أخاف سوى رعد

الإله.

ما إن انتهى التعس من نطق تلك الكلمات الأخيرة حتى شوهد وهو يتعثر ويتطوح ويرفع يده إلى وجهه في حركة يائسة ثم يسقط كالكتلة.

صعد ضجيج رهيب وسارع الأكاديميون وانحنوا على الجسم. لقد مات "**ماكسيم دالني**". ووجد المسؤولون كل مصاعب العالم في إخلاء القاعة.

مات كما سبق أن مات من شهرين من قبل وسط مشهد حفل الاستقبال " **جيهان مورتيمر** " شاعر العطور المأساوية وأول من انتخب خلفا لصاحب النيافة المطران "**دابيفيل**" . كان هو أيضا قد تلقى خطاب تهديد حمله إلى المعهد رسول لم يتم العثور عليه أبدا. والخطاب كان به أن العطور أحيانا ما تكون أكثر مأساوية مما يظن المرء. وهو أيضا بعد بضع دقائق انقلب... وهذا ما عرفه أخيرا بطريقة أكثر تحديدا السيد "**جاسبار لالويت**" وهو يسمع بأذن نهمة الكلام المجنون الذي يردده الجمهور الذي ملأ من قليل القاعة العامة للمعهد والذي ألقى بنفسه على اللسان في فوضى مروعة لا توصف. لقد ود لو عرف عن ذلك أكثر وأن يعرف على الأقل السبب الذي من أجله مات السيد "**جيهان مورتيمر**". فقد شكوا طويلا في وفاة "**ماكسيم دالني**". سمع جيدا الحديث عن الانتقام ،ولكن في تعبيرات غريبة وشاذة حتى إنه لم يولها أي اهتمام ومع ذلك اعتقد أن من الواجب عليه أن يسأل لمجرد المعرفة اسم ذلك الذي كان لابد من أن ينتقم في ظروف جديدة جدا عليه. ولذلك أخرجوا له أصواتا غريبة جدا حتى إنه ظن أنهم يهزأون به. ولما كان الليل قد اقترب لأنهم كانوا في الشتاء فقد قرر العودة إلى بيته عابرا كوبري الفنون حيث كان بعض الأكاديميين المتأخرين ومدعويهم قد تأثروا جدا من المصادفة الرهيبة لتلك النهايات الشنيعة وكانوا يسرعون إلى دورهم.

على أية حال فقد كان على السيد "**جاسبار لالويت**" وهو في لحظة اختفائه في الظل الذي كان يزداد كثافة على فتحتي نافذتين في ميدان "**دي كاسرول**" أن يتروى ويراجع نفسه. وقف أمام أحد السادة الهابطين من كوبري الفنون والذي بدا من هيئته العصبية أنه لايزال مثارا من الحادثة. وسأله:

– حسنا يا سيدي.. هل عرفوا أخيرا مم مات؟

– إن الأطباء يقولون إنه مات من تمزق الأوعية الدموية.

- والآخر من أي شيء مات؟

- لقد قال الأطباء بسبب احتقان في المخ.

عندئذ تقدم خيال بين المتحدثين وقال:

- كل هذا ترهات.. لقد مات الاثنان؛ لأنهما أرادا الجلوس على "المقعد المسكون".

حاول السيد "**لالويت**" أن يمسك بهذا الخيال من سترته، ولكنه اختفى.

عاد إلى بيته وهو سارح يفكر!

الفصل الثاني

مشهد في قاعة القاموس

في اليوم التالي لذلك اليوم المشؤوم. دخل السكرتير الدائم السيد "**هيبوليت بانارد**" أسفل قبة المعهد. وكان البواب على عتبة مقصورته وناول السيد السكرتير الدائم البريد وقال له:

– هانت قد حضرت مبكرا اليوم يا سيدي السكرتير الدائم.. لم يصل أحد بعد.

أخذ السيد "**هيبوليت بانارد**" بريده الذي كان ضخما إلى حدما من بين يدي البواب وقرر الاستمرار في طريقه دون أن يقول كلمة للرجل المحترم الوقور.. وقد دهش الرجل لذلك:

– إن السيد السكرتير الدائم يبدو عليه الانشغال تماما. على عكس الآخرين؛ لأن بقية الناس مشغولون هنا وحائرون بعد هذه الحادثة.

ولكن السيد "**بانارد**" لم يلتفت للخلف. أخطأ البواب عندما أضاف:

– هل قرأ السيد السكرتير الدائم هذا الصباح المقال في جريدة "**ليبوك**" حول "**المقعد المسكون**"؟

كان السيد "**هيبوليت بانارد**" يتميز بتلك الصفة الخاصة وهي أن يكون أحيانا عجوزا نشطا ومزدهرا وودودا ومبتسما ومرحبا ومتفاهما وساحرا حتى إن رجال الأكاديمية كانوا ينادونه صديقنا الطيب فيما عدا الخدم بالتأكيد الذي كان دائما شديد التحفظ معهم وإن كان يسألهم دائما عن صحتهم وأخبارهم وأحيانا ما يكون السيد "**هيبوليت بانارد**" عجوزا ضئيلا ونحيفا أصفر اللون مثل الليمونة وعصبيا شديد الغضب متذبذبا وممرورا (أي مصاب بالمرارة). وكان أقرب أصدقائه وقتها ينادونه السيد "**السكرتير الدائم**" بالخط العريض والخدم لا يقتربون منه. كان السيد "**هيبوليت بانارد**" يحب جدا الأكاديمية والذي وضع نصب عينيه أمرين لخدمتها وهما أن يحبها وأن يدافع عنها.

وكانت أيام الزهو وهي تلك التي تكون فيها انتصارات الأكاديمية الضخمة والاحترام

والتبجيل الشديد وجوائز الفضيلة كان يعلمها بزهرة حمراء. والأيام المشؤومة وهي أيام فيها بعض أوراق تسجيل الجلسة قد خلت من بعض الاحترام للمعهد المقدس وكان يعلمها "**هيبوليت بانارد**" بثمرة الليمون.

وكان من الواضح أن البواب لم يلاحظ في ذلك اليوم أي لون يتعلق به وإلا لتجنب الرد المجنون للسيد "**السكرتير الدائم**". فعند سماعه الحديث عن "**المقعد المسكون**" استدار السيد "**بانارد**" ككتلة واحدة وقال:

- اهتم بما يخصك. لست أدري إن كان هناك فعلا مقعد مسكون! ولكني أعرف أن هنا مقصورة لا يجب أن يملأها الصحفيون.. هل سمعت!

دار نصف دورة تاركا البواب كمن أصابته الصاعقة لو أن السيد السكرتير الدائم قرأ المقالة حول "**المقعد المسكون**"... ولكنه لم يعد يقرأ تلك المقالة في الجرائد منذ أسابيع! وبعد الموت الصاعق لـ"**ماكسيم دالني**" على أثر الموت الغريب جدا والذي لم يكن أقل صعقا -لـ"**جيهان مورتيمر**" فلم يكن محتملا قبل وقت طويل ألا يهتم في الصحافة بمثل هذا الموضوع المثير.

ومع ذلك وقف السيد "**بانارد**" ليسأل نفسه: ما هذا الذهن العاقل... الذي تجرأ ورأى في تلك الوفاتين أمرا آخر سوى أنهما مصادفتان مأسوف عليهما تماما؟ لقد مات "**جيهان مورتيمر**" من تمدد أوعيه المخ وهذا أمر طبيعي جدا والسيد "**ماكسيم دالني**" وقد تأثر بالنهاية المأساوية لسلفه وبفخامة الاحتفال وأخيرا بتوقعات مخجلة وقاسية من بعض الخطابات السيئة التي صحبت انتخاباته مات بانفجار الأوعية الدموية. وهذا أيضا ليس أقل طبيعية.

كان السيد "**هيبوليت بانارد**" الذي كان يعبر الفناء الأول للمعهد ويتجه نحو السلم المؤدي إلى السكرتارية قام بطرق الحرف غير المتساوي والمترب للجانب المغلق من مظلة مطره.

قال في نفسه: ماذا يمكن إذن أن يكون أكثر طبيعية من انفجار وريد؟ إنه أمر يمكن أن يحدث لكل الناس أن يموتوا بانفجار الوريد حتى وهم يقرءون خطبة الأكاديمية الفرنسية . وأضاف يكفي من أجل ذلك أن تكون أكاديميا.

وقف ساهما يفكر على أول درجة من السلم. أيما كان ما يدافع عنه السكرتير الدائم

فإنه كان وهميا بما يكفي. وتلك الفكرة -مهما كان الإنسان خالدا فإنه يمكن أن يموت بتمدد شرايين المخ- دفعته لأن يلمس كنوع من التهرب باليد اليمنى خشب مظلته التي أمسك بها بيده اليسرى. الكل يعرف أن الخشب يحمي ضد الحظ السيئ.

ثم استأنف خطواته الصاعدة. مر أمام السكرتارية دون أن يتوقف عندها وواصل الصعود ووقف على البسطة الثانية وقال بصوت عال:

- لو أنه فقط لم تكن هناك قصة الخطابين! ولكن كل البلهاء وقعوا في الفخ! إن هذين الخطابين وقد وقعا بالأحرف الأولى "أ. د. س. د. ت. د. ل. ن" وهي الحروف الأولى لـ"**اليفاس**"!

ثم أخذ السكرتير الدائم في النطق بصوت عال وسط سكون السلم الاسم الكريه لذلك الذي يبدو أنه بسحره الإجرامي أطلق الموت المحتوم على الشركة المحترمة والموقرة وهو "**اليفاس دي سانت ايلم دي تايبور دي لانوكس**". أن يكون له هذا الاسم ثم يتجرأ ويتقدم إلى الأكاديمية الفرنسية! أن يأمل.. هو ذلك جراح التعاسة والذي يدعى أنه مجوسي والذي يدعو نفسه "**سار**" والذي نشر مؤلفا بشعا هو "**صراحة النفس**" وتعشم في الشرف الأبدي في أن يجلس في مقعد مطران "**دابيفيل**" نعم.. إنه مجوسي! ويمكن القول إنه ساحر شرير يدعى معرفة الماضي والمستقبل وكل الأسرار التي يمكن أن تجعل الإنسان سيد الكون! إنه كيميائي. ماذا! عالم فلك! عراف! خبير في فك السحر ومحضر للأرواح.

وهو يريد أن يصبح عضوا في الأكاديمية لقد أحس السيد "**هيبوليت بانارد**" منه بالاختناق على كل حال منذ أن وضع ذلك المجوسي في القائمة السوداء كما يستحق وخذل في مسعاه، فقد انتخب شخصان تعسان لشغل منصب مطران "**دابيفيل**" وقد ماتا!

آه! لو أن "**السكرتير العام**" قرأ تلك المقالة حول "**المقعد المسكون**"! ولكنه أعاد قراءتها في الصباح نفسه في الجرائد وكان سيقرأها مرة ثانية في الحال في جريدة "**ليبوك**". وفي الحقيقة فتح -بنشاط متوحش لا يتناسب مع سنه- الجريدة.. وكان المقال يحتل عمودين في الصفحة الأولى ويكرر كل الحماقات التي اصطدمت بها أذنا السيد "**بانارد**" ورفضتها؛ لأنه في الحقيقة لا يستطيع الآن الدخول إلى أي صالون أو مكتبه

دون أن يسمع في الحال.

- إيه. حسنا.. وماذا عن "**المقعد المسكون**"! وبمناسبة المصادفة الرهيبة لموت الاثنين الأكاديميين بصفة خاصة اعتقدت جريدة "**ليبوك**" ضرورة أن تكتب بالتفصيل الأسطورة التي نشأت حول مقعد مطران "**دابيفيل**". وفي بعض الأوساط الباريسية حيث ينشغل الناس بأشياء عديدة تدور عند نهاية كوبري الفنون كانوا مقتنعين أن ذلك المقعد مسكون بروح الانتقام المجوسي "**اليفاس دي سانت ايلم دي تايبور دي لانوكس**"! ولما كان ذلك "**الاليفاس**" قد اختفى على أثر فشله لم تستطع "**ليبوك**" أن تمتنع عن الندم إنه بالضبط قبل اختفائه قد أطلق كلمات التهديد تبعها للأسف الشديد الوفاة المؤسفة والمفاجئة. وعند خروجه لآخر مرة من ملهى الهواء الذي أسسه في صالون الحسناء السيدة "**بثيني**" الأدبي قال "**اليفاس**" نصا وهو يتحدث عن مقعد المطران المبجل: "سوء الحظ سيصيب هؤلاء الذين سيرغبون في شغله معي وفي نهاية المقال بدت جريدة "**ليبوك**" غير واثقة وغير متأكدة على الإطلاق. وقالت بمناسبة الخطابين الذين تلقاهما المرحومان بعد موتهما تماما أن الأكاديمية ربما كانت تتعامل مع شخص هازل ،ولكنها قد تكون أيضا تتعامل مع مجنون. وأرادت الجريدة أن يتم العثور على "**اليفاس**" وهذا بالضبط يجب أن يحدث مالم تطالب بتشريح جثتي "**جيهان مورتيمر**" والسيد "**دالني**" لم يكن المقال موقعا ولكن السيد "**هيبوليت بانارد**" حمل على الكاتب المجهول ورأى أن يذهب إلى دار المشنوقين واعتبره رجلا أبله ثم دفع مصراع أحد الأبواب وعبر قاعة أولى مزدحمة بالأعمدة لتماثيل نصفية وآثار للنحت الجنائزي في ذكرى أعضاء الأكاديمية المتوفين والذين حياهم أثناء مروره عليهم، ثم عبر قاعة ثانية ثم وصل إلى ثالثة مزودة بموائد مغطاة بسجاد لونه أخضر ومحاطة بمقاعد ذات مساند مصفوفة بنظام وفي النهاية لوحة تظهر وجه الكاردينال "**أرمان جان دي بلسيي..دوق ريشليو**".

دخل السيد "**السكرتير الدائم**" قاعة القاموس. وكانت لاتزال مهجورة.

أغلق البوابة خلفه ثم جلس في مكانه المعتاد ووضع فيه بريده ثم رتب بعناية مظلته في ركن يستطيع منه مراقبتها والتي بدونها لا يستطيع الخروج أبدا والتي كان يوليها عناية مثيرة للحسد وكأنه شيء مقدس.

ثم خلع قبعته واستبدلها بطاقية صغيرة من القطيفة السوداء المطرزة ،ثم بدأ جولته

حول الموائد التي كانت تكون فيما بينها ما يشبه المقصورات الصغيرة حيث كان بها مقاعد ذات مساند وكان يمثلها المشاهير. وعندما مر بها السكرتير الدائم كان يلقي عليها نظرات حزينة. وهو يهز رأسه وينطق بأسماء هؤلاء المشاهير. وهكذا وصل إلى بوابة الكاردينال "**ريشيليو**" ورفع طاقيته وقال:

– صباح الخير أيها الرجل العظيم!

ثم وقف وأدار ظهره إلى الرجل العظيم وأخذ يتأمل أمامه بالضبط مقعدا ذا مساند.

كان مقعدا مثل بقية المقاعد الموجودة هناك بأرجله الأربع وظهره المربع لا أكثر ولا أقل ولكن فوق هذا المقعد تعود حضور اجتماع مطران "**دابيفيل**" ولم يجلس أحد منذ وفاة المطران المبجل على ذلك المقعد ولا حتى ذلك المسكين "**مورتيمر**" ولا حتى ذلك المسكين "**ماكسيم دالني**" واللذين لم تتح لهما أي فرصة لعبور عتبة قاعة الاجتماعات الخاصة للقاموس كما يقال. أو إلى مملكة الخالدين والحقيقة، إنه لم يكن هناك سوى تلك القاعة التي تعتبر ذات أهمية حيث كان لا يوجد فيها سوى الأربعة المقاعد للخلود.

تأمل السيد السكرتير الدائم المقعد الخاص بالمطران "**دابيفيل**" وقال بصوت عال:

– المقعد المسكون!

ثم هز كتفيه. ثم نطق العبارة المشؤومة في طريقة هازئة.

- لتصب التعاسة هؤلاء الذين أرادوا الجلوس عليه قبلي.

وفجأة تقدم من المقعد إلى أن لمسه وصاح وهو يضرب صدره:

- أيه حسنا أنا "**هيبوليت بانارد**" الذي يهزأ من سوء الحظ ومن السيد "**الفاس دي سانت ايلم دي تايبور دي لانوكس**".. أنا سأجلس عليك أيها المقعد المسكون!

ثم استدار واستعد للجلوس وتوقف وقد انحنى نصف انحناءة وتوقف في حركته وانتصف وقال:

– ثم.. لا... إنني لن أجلس! إنه أمر سخيف للغاية..! لا يجب على المرء أن يولي تلك الحماقات أي أهمية.

ثم عاد السيد "**السكرتير الدائم**" إلى مقعده بعد أن لمس أثناء مروره بأصبع متهرب يد مظلته وعليه انفتح باب السيد المستشار ودخل وهو يسحب وراءه السيد المدير.. وكان السيد المستشار كأي شخص ينتخب لهذا المنصب كل ثلاثة أشهر، ولكن مدير

الأكاديمية لهذا الفصل الدراسي الحالي كان "**لوستالو العظيم**" والذي يعد واحدا من أوائل علماء العالم وكان قد سمح للمستشار أن يسحبه من ذراعه وكأنه أعمى وليس الأمر لأنه لم يكن يرى بوضوح، ولكن لأنه كان دائما ما يتملكه الخيالات والشرود الواضح حتى إنهم تعودوا في الأكاديمية ألا يتركوه بمفرده خطوة واحدة. وعندما كان يخرج من بيته للذهاب إلى باريس كان صبيا صغيرا عمره اثنتا عشرة سنة يصحبه ويأتي ليوصله إلى مقصورة بواب المعهد وهناك كان السيد المستشار يتولاه.

وفي العادة كان "**لوستالو العظيم**" لا يسمع ما يدور حوله وكان كل فرد يعني بأن يتركه إلى تأملاته السامية والتي يمكن أن تتولد عنها بعض الاكتشافات الجديدة التي ترمي إلى تغيير الأحوال العادية للحياة الإنسانية. ولكن في ذلك اليوم كانت الظروف خطيرة جدا لدرجة أن السيد "**السكرتير الدائم**" لم يتردد في أن يذكره ويعلمه بها. ولم يكن "**لوستالو العظيم**" قد حضر في مشهد الليلة الماضية فقد أرسلوه بسرعة إلى بيته وربما كان هو الوحيد في العالم المتحضر الذي لم يحضر ذلك الاجتماع والذي يجهل أن "**ماكسيم دالني**" تعرض لنفس المصير المشؤوم الذي تعرض له "**جيهان مورتيمر**" الكاتب لـ"**العطور المأساوية**". صاح السيد "**هيبوليت بانارد**" وهو يرفع كفيه إلى السماء.

- آه يا سيدي المدير.. يالها من كارثة!

تجاسر "**لوستالو العظيم**" بالسؤال بطيبة شديدة :

– ماذا هناك إذن يا صديقي العزيز؟

– كيف؟ ألا تعرف؟ ألم يقل لك السيد المستشار؟ إن الأمر يرجع إلى أن أعلن لك خبرا في غاية الحزن! لقد مات "**ماكسيم دالني**"!

قال "**لوستالو العظيم**" الذي لم يفقد إيمانه منذ الطفولة:

– ليشمل الله روحه برعايته!

– لقد مات مثل "**جيهان مورتيمر**" مات في الأكاديمية وهو يلقي خطبته..!

أعلن العالم بمنتهى الرزانة والجدية:

– اية حسنا فعل! ها هي ذي ميتة جميلة!

ثم دعك يديه في بعضهما في براءة ثم أضاف:

– ألهذا السبب أزعجتني؟

تبادل السيد "**السكرتير الدائم**" والسيد المستشار نظرات ذاهلة ثم لاحظا نظرات "**لوستالو العظيم**" الشاردة وأن العالم المرموق كان يفكر في شيء آخر، فلم يلحا وقاداه إلى مكانه ثم أجلساه وأعطياه ورقة وريشة ومحبرة وتركاه، ويبدو عليهما مظهر من يقول لنفسه : "إنه الآن هنا سيظل في هدوء".

ثم انسحبا نحو إطار نافذة كل من السيد "**السكرتير الدائم**" والسيد المستشار بعد أن ألقيا نظرة رضاء على القلب المهجور وهما يهنئان النفس على الاستراتيجية التي استخدماها للتخلص من الصحفيين لقد أعلنا رسميا في مساء ليلة الأمس أنه بعد أن قررا حضور جنازة "**ماكسيم دالني**"، فإن الأكاديمية لن تجتمع إلا بعد أسبوعين لانتخاب خليفة مطران "**دابيفيل**" لأن الناس استمرت في الحديث عن مقعد مطران "**دابيفيل**" وكأن صوتين متتابعين لم يعطياه فرصة أن أصبحا صاحبي المنصب الجديد، وهكذا خدعا الصحافة وكان ذلك في اليوم التالي لموت السيد "**ماكسيم دالني**" اليوم الذي بناء عليه تابعنا السيد "**هيبوليت بانارد**" في قاعة القاموس. والتي كان من الضروري إجراء الانتخابات، لقد تم إخطار كل عضو في الأكاديمية بواسطة السيد "**السكرتير الدائم**" شخصيا بتلك الجلسة غير العادية والخاصة جدا بأنها ستفتتح خلال نصف الساعة.

وهمس السيد المستشار في أذن السيد "**هيبوليت بانارد**" :

– وماذا عن "**مارتان لاتوش**"؟ هل لديك أنباء عنه؟

بعد أن قال المستشار ذلك حدج السيد "**السكرتير الدائم**" بانفعال لم يحاول أن يخفيه. رد السيد "**بانارد**" متهربا :

– لست أعرف عنه شيئا.

- كيف.. أنت لا تعرف عنه شيئا؟

أراه السيد "**السكرتير الدائم**" بريده الذي لم يمسه.

- أنا لم أفتح البريد بعد.

- ولكن افتحه إذن أيها التعس!

قال السيد "**بانارد**" في تردد إلى حد ما :

– هل أنت متعجل يا سيدي المستشار؟

– أنا لا أفهمك يا "**بانارد**" !

– أنت متعجل على معرفة أن "**مارتان لاتوش**" ربما كان الوحيد الذي تجرأ على التمسك بترشيحه لـ"**ماكسيم دالني**" وهو يعرف البقية في هذه اللحظة أنه لن ينتخب.. أقول إنك متعجل على معرفة أن "**مارتان لاتوش**" يا سيدي المستشار... إنه الوحيد الذي بقي وإنه سيتخلى الآن عن خلافته في مقعد المطران "**دالني**" !

فتح السيد المستشار عينيه فزعا ولكنه ضغط علي يدي السكرتير الدائم.

- آه يا "**بانارد**".. إنني أفهمك..

- هذا أفضل يا سيدي المستشار.. هذا أفضل..

- إذن أنت لن تفتح البريد.. إلا بعد...

- لقد قلتها يا سيدي المستشار.. سيكون هناك دائما وقت لإعلامنا عندما ينتخب، إن السيد "**مارتان لاتوش**" لن يكون موجودا. آه.. . إنهم ليسوا عديدين.. مرشحو "**المقعد المسكون**".

ما إن نطق السيد "**بانارد**" بتلك الكلمات الأخيرة حتى ارتجف. لقد قال "**السكرتير الدائم**".. لقد نطق وكأنه يقول شيئا عاديا "**المقعد المسكون**" !

ساد صمت بين الرجلين. وفي الخارج في الفناء بدأت بعض المجموعات تتكون، ولكن كان من "**السكرتير الدائم**" والمستشار كان غارقا في أفكاره فلم ينتبها إلى ذلك. أطلق السيد "**السكرتير الدائم**" زفرة وتجهم السيد المستشار وقال:

– يا للعار! لو أن الأكاديمية سيكون بها تسعة وثلاثون مقعدا فقط.. فكر في هذا إذن!

قال السيد "**هيبوليت بانارد**" ببساطة:

– إن ذلك يقتلني!

كان أثناء ذلك الوقت "**لوستالو العظيم**" قد لوث أنفه بالحبر الأسود بعد أن غمر أصبعه في المحبرة وهو يعتقد أنه غمسه في علبة السعوط.

وفجأة انفتح الباب في فرقعة. دخل "**بادبنتان**".. "**بادبنتان**" هو كاتب "تاريخ بيت كونديه" بائع الكتب العجوز للملك. وصاح :

– هل تعرف ماذا يدعى؟

سأل "**السكرتير الدائم**" الذي كان في حالة الحزن التي عليها يخشى من كل لحظة سوء حظ جديد:

– من هو؟

– بالتأكيد هو.. "**اليفاسنا**".

- كيف "**نا**" "**اليفاسنا**"؟

– حسنا.. "**اليفاسهم**" اية حسنا السيد "**اليفاس دي سانت ايلم دي تايبور دي لانوكس**" يدعى "**بورجو**".. السيد "**بورجو**" مثل بقية الناس.

دخل بعض أعضاء الأكاديمية وكانوا يتحدثون بنفس الحماس ويكررون:

– نعم.. نعم السيد "**بورجو**"! إن السيدة "**بشيني**" الحسناء تحكي مغامرة السيد "**بورجو**".. هذا ما يقوله الصحفيون.

صاح السيد "**السكرتير الدائم**":

– إذن الصحفيون موجودون هناك!

– كيف تقول إنهم موجودون هناك؟ إنهم يملئون الفناء وهم يعلمون أننا سنجتمع ويدعون أن السيد "**مارتان لاتوش**" لن يحضر.

شحب وجه السيد "**بانارد**" وتجرأ بأن قال لاهثا:

– أنا لم أتلق أي اتصال في هذا الشأن.

سأله الجميع في قلق وطمأنهم دون قناعة:

– إن الأمر لايزال من اختراع الصحفيين. أنا أعرف السيد "**مارتان لاتوش**". إن "**مارتان لاتوش**" ليس بالرجل الذي يخشى الإرهاب... ثم إننا سنبدأ في الحال إجراءات انتخابه.

توقع الجميع وصول أحد كفيلي "**ماكسيم دالني**" وهو الكونت "**دي براي**". وسأل:

– هل تعرفون ماذا يبيع السيد "**بورجو**"؟ إنه يبيع زيت الزيتون. ولما كان قد ولد على طرف "**بروفانس**" في وادي "**كاري**" فقد كان يدعى في البداية "**جان بورجو دي كاري**".

وفي تلك اللحظة فتح الباب مرة ثانية دخل السيد "**ريمون دي لابراسبير**" عالم المصريات العجوز الذي كتب أهراما من المؤلفات حول الهرم وقال ببساطة:

– لقد عرفته تحت هذا الاسم: "**جان بورجو دي كاري**".

قوبل السيد "**ريمون دي لا براسبير**" بصمت مثلج كان هذا الرجل هو الوحيد الذي صوت لصالح "**اليفاس**". وكانت الأكاديمية تعزو لهذا الرجل عار أن أعطى صوتا لترشيح "**اليفاس**"! ولكن "**ريمون دي لا براسبير**" كان صديقا قديما للسيدة "**بشيني**" الجميلة. ذهب "**السكرتير الدائم**" نحوه. وقال:

– هل يمكن لزميلنا العزيز أن يخبرنا عم إذا كان في هذه الفترة السيد "**بورجو**" يبيع زيت الزيتون أم جلد الفتل أم أسنان الذئب أم شحم المشنوق؟

ساد الضحك. تظاهر السيد "**ريمون دي لا براسبير**" بأنه الوحيد الذي لم يسمع وأجاب:

– لا.. في هذه الفترة كان في مصر سكرتيرا لـ"**ميريت بيك**" الذي استمر بعد "**شامبليون**" الشهير وكان يحل شفرة الكتابات الغامضة التي كانت محفورة من آلاف السنين في سقارة على الجدران الجنائزية للأهرامات للملوك من الأسرتين الخامسة والثانية وكان يبحث عن سر "**توت**".

بعد أن قال عالم المصريات العجوز ذلك اتجه إلى مكانه ولما كان مقعده قد شغله أحد الزملاء الذين لم ينتبهوا، فإن السيد "**هيبوليت بانارد**" الذي كان يتابع السيد "**دي لا براسبير**" بعين لئيمة من فوق نظارته قال له:

– حسنا يا سيدي الزميل العزيز؟ ألن تجلس؟ إن مقعد المطران "**دابيفيل**" يمد لك ذراعيه.

رد السيد "**دي لابراسبير**" بلهجة كان من الممكن أن تعيد بعض الخالدين إلى الحياة.

- لا! لن أجلس أبدا على مقعد مطران "**دابيفيل**"!

سأله "**السكرتير الدائم**" بابتسامة غير مريحة:

– ولكن لماذا؟ لماذا لن تجلس على الإطلاق على مقعد مطران "**دابيفيل**"؟ هل بالمصادفة تأخذ أنت أيضا مأخذ الجد كل الترهات التي يقصونها ويرددونها عن "**المقعد المسكون**"؟

– أنا لا أنظر بعين الاهتمام على الإطلاق لأية حماقات يا سيدي "**السكرتير الدائم**"، ولكني لا أريد أن أجلس على الإطلاق عليه لأن ذلك لا يعجبني بكل بساطة.

كان الزميل الذي جلس مكان السيد "**ريمون دي لابراسبير**" قد تركه له في الحال وسأله بكل احترام ودون تهكم: هل هو يعتقد -وهو الذي عاش طويلا في مصر والذي عن طريق دراساته- التي وصل فيها إلى حد بعيد حتى أصول الحضارات إن كان فعلا يعتقد في سوء الحظ أو القدر. فقال:

– لم أكن أحرص إذن على إنكار ذلك.

هذا الإعلان جعل كل الناس يصيخون السمع بانتباه وكان الأمر قد تطلب ربع ساعة أخرى حتى يبدأوا في عملية التصويت التي من أجلها عقد هذا الاجتماع في هذا اليوم وقد توسلوا إلى السيد "**دي لابراسبير**" في أن يشرح قوله.

أدرك عضو الأكاديمية بنظرة شاملة أن أحدا يبتسم وأن السيد "**بانارد**" قد فقد روح الفكاهة. قال بصوت جاد:

– نحن هنا نلمس السر الغامض. أن كل ما يحيط بكم والذي لا نراه هو لغز أو أحجية والعلم الحديث والذي استطاع أفضل من العلم القديم أن يخترق ما نراه في تأخر شديد عن العلم القديم فيما يخص مالا نراه. والذي استطاع أن يتبحر في العلم القديم استطاع اختراق مالا نراه. نحن لا نرى أو نفهم ما هو "سوء الحظ" ولكنه موجود من ينكر الحظ وسوء الحظ؟ إن الأول أو الثاني يتصل بأشخاص أو مشروعات أو أشياء بضراوة بالغة. اليوم نحن نتحدث عن حسن الحظ أو سوئه وكانه قدر محتوم لا نستطيع أن نفعل حياله شيئا. والعلم القديم كان قد قاس بعد مئات السنين والقرون من الدراسة تلك القوة الخفية أقصد أفكار حسن أو سوء الحظ تماما.

ساد الصمت وسكت الجميع الآن وهم ينظرون إلى "المقعد" وبعد فترة قال المستشار:

– والسيد "**اليفاس دي لانوكس**" هل استطاع حقا اختراق مالا نراه؟

أجاب السيد "**ريمون دي لابراسبير**" في حزم:

– أنا أعتقد ذلك. وإلا لما صوت لصالحه. إنه علمه الحقيقي. إنه المذهب الديني السري المعروف باسم "**القباليه**" وهو ما يجعله جديرا بأن ينضم إلينا.

ثم أضاف:

– إن "**القباليه**" الذي يبدو أنه قد ولد مرة ثانية في عصرنا تحت اسم "**علم الظواهر الروحانية**" هو أقدم العلوم وأكثرها احتراما. ولا يهزأ به سوى الحمقى والبلهاء.

ثم نظر السيد "**ريمون دي لابراسبير**" فيما حوله مرة ثانية ولكن أحدا لم يعد يضحك.

بدأت القاعة تمتلئ شيئا فشيئا وسأل أحدهم :

– ما هو سر "**توت**"؟

أجاب العالم:

– إن "توت" هو مخترع السحر المصري وسره هو سر الحياة والموت.

سمع صوت صفير "**السكرتير الدائم**":

– بمثل هذا السر لابد أن الأمر يصبح مزعجا ألا ينتخب في الأكاديمية الفرنسية!

أعلن السيد "**دي لابراسبير**" في رزانة:

– يا سيدي "**السكرتير الدائم**". لو أن السيد "**بورجو**" أو السيد "**اليفاس**".. سميه كما شئت فإن ذلك لا اهمية له.. لو أن هذا الرجل حصل كما يدعي على سر "**توت**" فإنه أقوى مني ومنك وأرجوك أن تؤمن به ولو شاء سوء حظي أن اجعله عدوا لي فإنني سأحب أن أقابل في طريقي ليلا فرقة من اللصوص المسلحين أفضل من مقابلة ذلك الرجل بيديه عاريتين من السلاح.

كان عالم المصريات العجوز قد نطق كلماته الأخيرة بقوة وقناعة حتى إنه لم يعجز عن إحداث الانفعال بما يقوله.. ولكن "**السكرتير الدائم**" عاد بضحكة جافة:

– لابد إذن أن "**توت**" هو الذي علمه التجول في الصالونات الأدبية بباريس بثوب فوسفوري مضيء! وهو ما يبدو أنه يرأس الاجتماعات الروحانية عند السيدة "**دي بثيني**" الحسناء في ثوب يضيء.

رد عليه السيد "**ريمون دي لابراسبير**" في هدوء:

– كل له طرقه وحيله الخاصة.

سأله السيد "**السكرتير الدائم**" في نزق:

– ماذا تريد أن تقول:

رد السيد "**ريمون لابراسبير**" في غموض:

– لا شيء. فقط يا عزيزي "**السكرتير الدائم**" اسمح لي أن أدهش من أن ساحرا

جادا جدا مثل السيد "**بورجو دي كاري**" يجد من يتهكم عليه وهو في الحقيقة أكثر الناس تعلقا بالروحانيات.

صاح السيد "**هيبوليت بانارد**" وهو يتجه نحو زميله:

– أنا متيم بالروحانيات؟ من أين علمت يا سيدي أنني متيم بالروحانيات؟

تقدم نحو عالم المصريات بفم مفتوح وقد برزت أسنانه وكأنه سيهم بابتلاعه.. رد الآخر:

– عندما تلمس خشب يد مظلتك وأنت تعتقد أن أحدا لا يراك.

- أنا ألمس الخشب! هل رأيتني أنا! وأنا ألمس الخشب؟

– أكثر من عشرين مرة في اليوم.

- أنت كاذب في هذا يا سيدي..!

في الحال تدخل الآخرون. وسمعت عبارات مثل "هيا يا سادة"! "اهدأ يا سيدي "**السكرتير الدائم**"!" إن هذه المشاجرة يا سيد "**دي لابراسبير**" مهينة.

وأصبح الاجتماع الموقر في حالة حمى لا تصدق بالنسبة للخالدين فقط "**لوستالو العظيم**" هو الوحيد الذي بدا لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا وقد غمس الآن بكل قناعه ريشته في علبة نشوقه (سعوطه).

شد السيد "**هيبوليت بانارد**" جسده واقفا على طرفي قدميه وصاح بأعلى صوته وهو يحدج "**دي لابراسبير**" بنظرات صاعقة:

–إنه يضيرنا في النهاية هذا المخلوق المسمى بـ"**اليفاس**" والمرحوم "**ساندري أيلم دي تاي آريبور دي لابوكس دي بوريكو دي كاري**"!

وظل السيد "**دي لابراسبير**" أمام مزاح غاضب وغير ملائم من فم "**السكرتير الدائم**" محتفظا ببرودة أعصابه وقال:

– سيدي "**السكرتير الدائم**". أنا لم يسبق لي أن كذبت أبدا في حياتي وليس في سني هذه أن أبدأ ذلك وليس ببعيد أنني مساء ليلة أمس رأيتك قبل الاجتماع الرسمي المهيب تقبل يد مظلتك!

قفز السيد "**هيبوليت بانارد**" ووجد البعض صعوبة العالم كله في منعه من الاندفاع في أعمال ضد عالم المصريات العجوز. ثم صاح:

– مظلتي! مظلتي! أولا أمنعك من الحديث عن مظلتي.

ولكن السيد "**دي لابراسبير**" أسكته وهو يشير إليه إلى "**المقعد المسكون**" :

– مادمت لست من عشاق الروحانيات. اجلس إذن عليه لو تجرأت.

وكان المجلس الذي كانت الحركة والانفعال يحيطان به تجمد أعضاؤه في الحال. وأخذت الأنظار الآن تنتقل ما بين المقعد المسكون والسيد "**هيبوليت بانادر**".

أعلن السيد "**هيبوليت بانارد**" :

– سأجلس عليه عندما يحلو لي ذلك. إنني لا أتلقى أوامر من أحد.. ثم أولا يا سادة اسمحوا لي أن أجعلكم تدركون أن ساعة بدء التصويت دقت منذ خمس دقائق..

ثم عاد إلى مكانه وقد استعاد فجاة مهابته. ومع ذلك لم يصل إلى درجة إلا وصحبته بعض الضحكات. رآهم وكل واحد منهم يجلس على مقعده من أجل المجلس الذي سيبدأ.. وأن المقعد المسكون لايزال شاغرا وقال بمظهره المتأزم بعض الشيء الخاص بـ"**بانارد**" الليموني.

- إن القواعد لا تعارض أيا من زملائي الذي يرغب في الجلوس في مقعد مطران "**دالني**" أن يجلس عليه.

لم يتحرك أحد. وأحيا أحد هؤلاء السادة الروح وضمير الناس جميعا عندما صاح معلنا :

– من الأفضل عدم الجلوس عليه احتراما لذكرى مطران "**دابيفيل**".

وفي أول دورة تصويت انتخب المرشح الوحيد "**مارتان لاتوش**" بالإجماع.

وعندئذ فتح السيد "**بانارد**" بريده. ثم تملكه السرور الذي عزاه لأمور كثيرة عندما لم يجد فيه أية أخبار عن "**مارتان لاتوش**".

تلقى بذُل وسكينة من الأكاديمية المهمة غير العادية للذهاب بنفسه إلى السيد "**مارتان لاتوش**" الحدث السعيد. وهو أمر لم يسبق له أن رآه. سأل المستشار السيد "**هيبوليت بانارد**" :

– ما الذي ستقوله له؟

ولكن السيد "**السكرتير الدائم**" الذي كان رأسه مضطربا بسبب كل تلك

الحكايات الغريبة أجاب في إبهام:

– ماذا تريد مني أن أقول له؟ سأقول له: الشجاعة يا صديقي!

وهكذا في ذلك المساء عندما رنت الساعة العاشرة مساء انسل شبح –بدا وكأنه اتخذ كل الاحتياطات حتى لا يتبعه أحد– انسل على الأرصفة المهجورة لميدان "**دوفين**" القديم ووقف أمام بيت صغير منخفض ثم دق السقاطة القبيحة جدا وسط هذه الوحدة.

الفصل الثالث

الصندوق الذي يسير

لم يكن السيد "**هيبوليت بانارد**" يخرج أبدا بعد العشاء. لم يكن يعرف ما هي التمشية ليلا في شوارع باريس. لقد سمعهم يقولون وقرأ في الصحف أن ذلك خطر. وعندما كان يحلم بـ"**باريس**" ليلا وهو يرى متخيلا شوارع معتمة ومتعرجة وقد أضيئت هنا وهناك بمصابيح معتمة على حوامل أمام المنازل الخاصة بالسادة البورجوازيين من أيام "**لويس الخامس عشر**".

وعليه لما كان السيد "**السكرتير الدائم**" مستمرا في السكن في حي "**بوسي**" السيئ في شقة لم يستطع أي انتصار أدبي أو مركز أكاديمي مرموق أن يجعله يتركها، فإن السيد "**هيبوليت بانارد**" في تلك الليلة عندما ذهب إلى ميدان "**دوفين**" الساكن بشوارعه العتيقة وأرصفته المهجورة والكوبري الجديد المثير للقلق والخوف لم يجد أي فرق بين الخيال والواقع الشنيع. هل أصابه أيضا الخوف؟ من اللصوص؟ ومن الصحفيين بشكل خاص؟

ارتجف أمام فكرة أن يفاجئه بعض الجرنالجية (لفظ تحقير للصحفيين) وهو "**السكرتير الدائم**" يقوم بجولة ليلية إلى عضو الأكاديمية الجديد "**مارتان لاتوش**" ولكنه فضل بالنسبة لهذه المهمة غير المألوفة أن يكون شبحا غير مرئي وسط عتمة الليل بدلا من وضح النهار ثم في مجمل القول: إن السيد "**هيبوليت بانارد**" يمكن أن ينزعج أقل في تلك الليلة حتى يعلن الخبر رسميا رغم كل الظروف للسيد "**مارتان لاتوش**" أنه قد انتخب (وهي حادثة على أية حال لا يجب أن يجهلها السيد "**مارتان**" وأنه ليس في هذا المكان إلا من أجل استعلام السيد "**مارتان لاتوش**" نفسه عما إذا كان حقا قال إنه لم يمثل وإنه يرفض مقعد المطران "**دابيفيل**"، لأن ذلك هو ما ذكر بالنص في طبعة المساء من الجريدة وإذا كان الأمر صحيحا كان موقف الأكاديمية الفرنسية يصبح رهيبا ومثيرا للسخرية.

لم يتردد السيد "**هيبوليت بانارد**" عندما قرأ الخبر الرهيب بعد تناوله عشاءه فارتدى

معطفه وقبعته وأخذ مظلته ضد المطر ثم هبط إلى الشارع.. الشارع كان حالكا تماما. والآن هو يرتجف في ميدان "**دوفين**" أمام بيت "**مارتان لاتوش**" حيث رفع سقاطته. طرقت السقاطة قاعدتها ولكن الباب لم ينفتح.

وقد بدا للسيد "**السكرتير الدائم**" أنه لمح عن اليسار على ضوء قنديل متذبذب شبحا غريبا لا معنى له بالتأكيد، شاهد وكأن صندوقا كان يسير. كان صندوقا مربعا له سيقان صغيرة والذي فر وسط الليل دون ضجة.

ولم ير السيد "**بانارد**" شيئا فوق الصندوق.. شيئا مميزا.. صندوق يمشي! في الليل! وفي ميدان "**دوفين**"! طرق السيد "**السكرتير الدائم**" المطرقة مرة ثانية في جنون.

وما كان أن يختلس نظرة جديدة جانب الناحية التي وقعت فيه تلك الحادثة، حادثة الظهور الغريب، انفتحت طاقة صغيرة وأضاءت في الباب العتيق للعمارة التي يقطنها "**مارتان لاتوش**" وجاء شلال من الضوء ليصدم مباشرة وجه السيد "**السكرتير الدائم**" وسأل صوت خشن:

– من أنت؟ وماذا تريد؟

– إنه أنا السيد "**هيبوليت بانارد**".

- "**بانارد**"؟

– "**السكرتير الدائم**" للأكاديمية.

عند هذه الكلمة "**أكاديمية**" انغلقت الكوة محدثة صوت فرقعة ووجد السيد "**السكرتير الدائم**" نفسه مرة ثانية معزولا في الميدان الصامت.

وفجأة عن يمينه هذه المرة رأى مرة ثانية شبح الصندوق الذي يسير.

التصق العرق الآن على طول خدي المبعوث فوق العادة للجمعية المشهورة وهما نحيفان ومن صحيح القول في مدح السيد "**هيبوليت بانارد**" إن الانفعال الذي كان على استعداد للاستسلام فيه والغرق فيه في تلك الدقيقة القاسية كان سببه أقل من رؤيته للرؤيا غير المفهومة للصندوق الذي يسير ومن الخوف من اللصوص كل ذلك أقل من المواجهة التي على الأكاديمية الفرنسية كلها ستتحملها.

- أي الانفعال. في شخص "**السكرتير الدائم**".

اختفى الصندوق بنفس السرعة التي ظهر بها. كان المسكين في حالة انهيار وألقى

حوله نظرات فارغة.

آه! ذلك الميدان القديم! بأرصفته المستهلكة وسلالمه وواجهاته الكئيبة والتي تثقبها نوافذ فسيحة حيث زجاجها الأسود العاري من الستائر بدا أنه يحاول دون جدوى منع الهواء من السريان في الحجرات الواسعة المهجورة منذ سنوات لا تعد. كانتا عينا السيد "**هيبوليت بانارد**" الحزينتان مثبتتين فترة فيما وراء الأسقف الحادة على القبة السماوية حيث تنزلق السحب المثقلة ثم تهبط ببطء إلى الأرض بالضبط لتريا ثانية –في الساحة الممتدة من أمام قصر العدالة المضاء بشعاع ضعيف من القمر –الصندوق الذي يسير في الحقيقة كان الصندوق يجرى بكل ما تستطيعه سيقانه القصيرة من ناحية "**هولوج**".

وكان أمرا شيطانيا.

لمس الرجل المسكين في يأس يد مظلة المطر الخشبية بيديه. وفجأة قفز فزعا.. لقد رأى شيئا ينفجر خلفه.. صوتا غاضبا:

– إنه هو مرة أخرى.. إنه هو مرة أخرى! آه! سأوجه إليه أحد تلك السهام.

استند السيد "**هيبوليت**" على الجدار وساقاه مرتخيتان وبلا قوة وغير قادر حتى على إطلاق صرخة دار حول رأسه ما يشبه العصا أو يد المقشة ،أغمض عينيه استعدادا للضربة وهو يقدم حياته فداء الأكاديمية.

أعاد فتحهما وهو دهش لأنه لايزال على قيد الحياة ويد المكنسة لاتزال تدور فوق سرب جيبات طائرة أخذت تبتعد يصحبها ضجة كعوب أحذية مسرعة تدق الأرصفة.

كانت المكنسة والصرخات والتهديدات إذن ليست موجهة إليه. تنفس الصعداء.

ولكن من أين أتت تلك الرؤية الجديدة؟ استدار السيد "**بانارد**". كان الباب خلفه مواربا دفعه ودخل في ردهة تؤدي إلى فناء تجمعت فيه كل ريح الشمال.

*****

لقد كان في بيت السيد "**مارتان لاتوش**". كان السيد "**السكرتير الدائم**" موثقا.. –أي لديه الوثائق– كان يعرف أن السيد "**مارتان لاتوش**" رجل من العهد القديم لا يحب في العالم سوى الموسيقى والذي يعيش مع مربيته العجوز. وكانت تلك العجوز لا تطيق الموسيقى وهي أيضا طاغية ولديها شهرة أنها تجعل حياة الرجل الطيب صعبة.

ولكنها كانت مخلصة له بدرجة لا يمكن وصفها وعندما يكون عاقلا كانت تهدهده كالطفل. وكان "**مارتان لاتوش**" يتحمل تحمل الشهداء وصمودهم هذا الإخلاص وكان "**جان جاك العظيم**" قد تحمل هو أيضا محنا من هذا النوع ومع ذلك لم يمنعه ذلك من كتابة "**الويز الجديدة**". ورغم كره "**بابيت**" وهذا اسم المربية للموسيقى والألحان وآلات النفخ إلا أن هذا لم يمنع "**مارتان لاتوش**" من تاليف خمسة مجلدات ضخمة حول تاريخ الموسيقى والذي حصل بسببها على أكبر جوائز الأكاديمية الفرنسية.

توقف السيد "**هيبوليت بانارد**" في الردهة في مدخل الفناء وهو مقتنع بأنه سيرى ويسمع "**بابيت**" الرهيبة وهي تظهر. فكر تماما أنها ستعود وعلى هذا الأمل تماسك وهو لا يتجرأ على النداء خوفا من أنه ربما سيوقظ السكان سريعي الغضب. ولم يخاطر بالتحرك داخل الفناء خوفا من أن يدق عنقه.

كان من الواجب أن يكافأ السيد "**السكرتير الدائم**" على صبره. بدأت الكعوب تدق ثانية ثم انغلق باب الدخول بضجة عالية.

وفي الحال ظهر شكل أسود ليصطدم بالزائر الخجول وصاح:

– من هناك؟

جاء صوته مضطربا:

– إنه أنا "**هيبوليت بانارد**".. الأكاديمية "**السكرتير الدائم**"... أوه... "**ريشيليو**"!

– ماذا تريد؟

– السيد "**مارتان لاتوش**"!

– إنه ليس هنا. ولكن ادخل على أية حال فلدي ما أقوله لك.

وجد السيد "**هيبوليت بانارد**" نفسه مدفوعا إلى غرفة يفتح بابها على قبو. ولاحظ "**السكرتير الدائم**" المسكين على ضوء مسرجة مشتعلة على مائدة قبيحة من الخشب الأبيض وتضيء مجموعة كاملة من أدوات المطبخ معلقة على الحائط وأنهم أدخلوه إلى حجرة حفظ الطعام قبل تقديمه والمعروفة باسم "**الأوفيس**". انغلق الباب خلفه. وأمامه رأى كرشا ضخما مغطى بمريلة مربعات ويدين هائلتين مرتاحتين على وسط ضخم ولازالت إحداها تمسك بالمقشة من يدها. وفوق ذلك وسط العتمة صدر صوت أجش من كثرة احتساء الكحوليات:

– أنت إذن تريد أن تقتله؟

وقالت ذلك بلهجة معينة خاصة بأهل "**افيرون**" لأن "**بابيت**" كانت من "روديه" مثل "**مارتان**".

عاد الصوت يقول:

– قل لي يا سيدي "الدائم" هل تريد إذن أن تقتله؟

هز "الدائم" رأسه في قوة علامة النفي وفي النهاية تجرأ وقال:

– لا.. لا يا سيدتي لا أريد أن اقتله وإنما أريد رؤيته.

- حسنا ستراه يا سيدي "الدائم" ولأنه في الأساس لك رأس طيبة لرجل أمين مثلي وستراه لأنه هنا. ولكن قبل ذلك كان لابد أن أتحدث معك. لذلك عليك أن تسامحني يا سيدي "الدائم" لأنني أدخلت رجلا مثلك في حجرتي لإعداد الطعام (**الأوفيس**).

وبعد ذلك وضعت مقشتها ذات اليد جانبا، أشارت إلى السيد "**هيبوليت بانارد**" أن يتبعها إلى ركن إحدى النوافذ حيث وجد كل منهما مقعدا، ولكن قبل أن يجلسا ذهبت "**بابيت**" لتخفي مسرجتها خلف المدفأة بطريقة بحيث يصبح الجانب الذي أدخلت فيه السيد "**السكرتير الدائم**" غارقا في الظلام ثم عادت وفتحت بكل رقة أحد مصراعي النافذة الداخليين. وفي الحال ظهرت فتحة النافذة عليها شبكة من القضبان الحديدية والقليل من الضوء المهتز أضاء وجه "**بابيت**" حدجها السيد "**السكرتير الدائم**" واطمأن بعد أن كل الاحتياطات التي اتخذتها المربية العجوز قد حيرته بل وأقلقته. إن ذلك الوجه الذي لابد أنه في بعض الأحيان يخشى النظر إليه كان يعبر في تلك اللحظة عن رقة وتعاطف يعطيان الثقة. قالت "**لابابيت**" وهي تجلس أمام الأكاديمي:

– سيدي "الدائم" لا تدهش من تصرفاتي.. لقد وضعتك في الظلام حتى أراقب السهارة ولكن لم يعد هناك حاجة إليها الآن. والآن لا أريد أن أقول لك سوى شيء واحد (وفي هذه اللحظة عاد الصوت الأجش الذي بلغ حد البكاء) هل تريد أن تقتله؟

عندما قالت "**لابابيت**" هذا الكلام امسكت يدي السيد "**هيبوليت بانارد**" بين يديها والذي لم يحاول سحبهما على الإطلاق؛ لأنه بدأ يتأثر تأثرا عميقا بهذه الكتلة الآسفة القادمة من أعماق اقليم "**افيرون**". استمرت "**لابابيت**":

– اسمع! إنني أسألك يا سيدي "الدائم"، إنني أسألك بإخلاص تام من قلبك

وروحك كما يقولون أمام القاضي.. هل تعتقد أن كل تلك الميتات أمر طبيعي؟ أجب علي يا سيدي "الدائم".

أمام هذا السؤال الذي لم يكن السيد "الدائم" يتوقعه أحس ببعض الاضطراب. ولكن بعد لحظات بدت سامية بالنسبة لـ"**لابابيت**" قال بصوت واثق:

– بروحي وقلبي.. نعم أعتقد أن تلك الميتات طبيعية.

ساد صمت مرة أخرى وقالت "**لابابيت**" بصوتها الحاد:

– سيدي "الدائم"... ربما لم تمعن التفكير.

- لقد أعلن الأطباء يا سيدتي..

- إن الأطباء غالبا ما يخطئون.. وقد رأينا ذلك أمام العدالة. فكر في الأمر يا سيدي "الدائم" اسمع إنني سأقول لك شيئا: إن المرء لا يموت هكذا في نفس المكان وهو يقول تقريبا نفس الكلام في مدة بينيه لا تزيد على أسابيع مالم يكن ذلك مدبرا من قبل.

لقد استطاعت "**لابابيت**" بلهجتها شديدة التعبير أكثر من كونها صحيحة قد لخصت بإعجاز الموقف. لدرجة أن السيد الدائم صدم من ذلك.

سألها:

- ماذا تعتقدين إذن؟

- أعتقد أن ذلك الـ"**اليفاس دي لانوكس**" هذا الخاص بكم هو ساحر شرير.. لقد قال إنه سينتقم وقد سممهما. ربما كان السم في الخطاب.. ألا تعتقد ذلك؟ وهل هذا ربما غير ذلك؟ ولكن يا سيدي "**الدائم**" اسمعني جيدا.. ربما كان أمرا آخر وسأطرح عليك سؤالا. بروحك وقلبك لو أن السيد "**مارتان لاتوش**" عندما أراد أن يجامل مات مثل الآخرين هل ستظل تعتقد أن ذلك أمر طبيعي؟

رد السيد "**هيبوليت بانارد**" دون تردد:

– لا.. إنني لن أعتقد ذلك.

- بروحك وضميرك؟

– بروحي وضميري.

- حسنا يا سيدي "**الدائم**" أنا لا أريده أن يموت.

- ولكنه لن يموت يا سيدتي.

- هذا ما قالوه للسيد "**دالني**" وقد مات.

- ليس هذا سببا من أجله السيد "**مارتان**"..

- ممكن! على أية حال أنا منعته من ذلك، من أن يمثل في أكاديميتك.

- ولكنه انتخب يا سيدتي! انتخب!

– لا، مادام لم يمثل! آه! هذا ما أجبت به. على كل الصحفيين الذين أتوا إلى هنا. وليس هناك ما يمكن أن يلغي قولي.

– كيف تقولين إنه لم يمثل.. إن لدينا خطابات منه.

- هذا لا يعتد به منذ الخطاب الأخير الذي كتبه لك أمس مساء أمامي فور علمنا بوفاة السيد "**دالني**". لقد كتبه هنا أمامي ولن يقول أحد العكس ولابد أنك استقبلته هذا الصباح لقد قرأه علي. لقد قال إنه لن يمثل أبدا أمام الأكاديمية.

- أقسم لك يا سيدتي أنني لم أتلقه.

انتظرت "**لابابيت**" قبل أن ترد ثم قررت:

– أنا أصدقك يا سيدي الدائم.

نطق السيد الدائم:

– البريد! أحيانا ما يخطئ في خدماته.

ردت "**لابابيت**" وهي تتنهد:

– لا.. لا يا سيدي الدائم.. ليس هذا هو الأمر أنت لم تتلق الخطاب لأنه لم يضعه في صندوق البريد ثم أطلقت زفرة جديدة.

- أوه! إن ذلك يجلب عليه النحس.. يجلب عليه النحس، كم كان يحب أن يكون ضمن أكاديميتك.

ثم قالت من بين دموعها:

– إن لدي مخاوف.. ووساوس لا تخطئ أبدا أليس صحيحا يا سيدي الدائم أنه ليس من الطبيعي لو مات مثل الآخرين.. لا تدعه يخضع للمجاملة!

رد السيد "**هيبوليت بانارد**" في الحال والذي كانت عيناه مبللتين:

– أوه! هذا مستحيل.. لابد أن ينتهي الأمر بأحدهم أن يلقي خطاب رثاء مطران "**دابيفيل**".

ردت "**لابابيت**" :

– هذا سيان عندي. ولكنه للأسف لا يفكر إلا في هذا، أن يجامل المرحوم المطران "**دابيفيل**".. وهو ليس شريرا على الإطلاق. وبالنسبة للمجاملات أنه سيقدمها أن ذلك ليس الذي يمنعه من أن يكون في أكاديميتك.. ولكن لدي وساوس كما قلت لك.

فجأة توقفت "**لابابيت**" عن البكاء وقالت :

– صه!

أخذت تتفرس الآن بعين متوحشة في الرصيف المواجه. تابع السيد "**السكرتير الدائم**" نظراتها ورأى بوضوح تحت ضوء المصباح : الصندوق الذي يسير إلا أن الصندوق لم يكن له سيقان فحسب وإنما أيضا رأس.. رأس غير عادي أصلع وذو لحية في حجم الخزانة الضخمة.

همس السيد "**هيبوليت بانارد**" :

– لاعب أرغن من البربر.

صححت له السيدة "**لابابيت**" :

– بل رجل رث لا قيمة له.. ها هو قد عاد ثانية يا إلهي! إنه يعتقد أننا نمنا... لا تتحرك.

كان كل الموسيقيين بالنسبة لها تافهين. كانت منفعلة للغاية حتى إنه كان بالإمكان سماع ضربات قلبها ثم قالت من بين أسنانها :

– سنرى تماما ما الذي سيفعله.

كان الرأس مشعثا جدا لدرجة يصعب معها معرفة أي ملمح ولكن عينيه كانتا حيتين وثاقبتين. فكر السيد "**هيبوليت بانارد**" في نفسه أنه سبق أن رأى تلك العينين في مكان ما. وازداد منها قلقا. ومع ذلك لم يكن في حاجة إلى أحداث أخرى ليزيد من اضطراب كان هو أصلا قد زاد من اتساعه، لقد كانت الساعة غريبة جدا وغير مضمونة وغامضة وفي آخر ذلك المطبخ العتيق خلف قضبان تلك النافذة المعتمة في مواجهة تلك المربية الشجاعة التي قلبت قلبه وأحشاءه بأسئلتها (في الحقيقة! في الحقيقة! إنه رد بأن تلك الميتتين كانتا طبيعيتين..! وإذا كان الآخر.. يقصد الثالث سيموت! أي نوع من المسؤولية ستكون على السيد "**هيبوليت بانارد**" وأي نوع من تأنيب الضمير!)

والآن قلب السيد "**هيبوليت بانارد**" ينبض بشدة مثله مثل قلب العجوز "**لابابيت**".

ما الذي يفعله في تلك الساعة على ذلك الرصيف المهجور ذلك الرأس الأصلع فوق الأرغن البربري؟ لماذا كان لذلك الصندوق تلك المشية الغريبة جدا وهو يظهر ويختفي ويعود بعد طرده؟ (لأنه بالتأكيد المرأة العجوز "**لابابيت**" هي التي طاردته بحمية وبكل ما سمحت لها قدماها بالجري فوق الرصيف حتى أعماق الليل) لماذا عاد الصندوق تحت مصباح الطريق المواجه للبيت وبه تلك اللحية الكثيفة والعينان الرامشتان؟ لقد قالت "**لابابيت**" أنها سترى ماذا سيفعل، ولكنه لم يفعل شيئا سوى النظر.

همست الخادمة.. انتظر.. انتظر!

وبحذر شديد اتجهت حتى باب المطبخ.. من الواضح ستعود إلى المطاردة.. أوه.. إنها شجاعة رغم خوفها!

وكان السيد "**السكرتير الدائم**" قد أبعد للحظات نظراته عن الصندوق الثابت فوق الرصيف ليتابع حركات "**بابيت**" وعندما نظر ثانية نحو الشارع كان الصندوق قد اختفى! قال:

– أوه.. لقد رحل.

عادت "**بابيت**" نحو النافذة. ونظرت هي أيضا إلى الشارع ثم تأوهت:

– لم يعد هناك شيء! إنه سيقتلني من الرعب؟ آه لو أمسكت بلحيته بين أصابعي المتصلبة.

سأل السيد "**السكرتير الدائم**" مغامرا:

– ما الذي يريده؟

– يجب أن تسأله هو يا سيدي "**السكرتير الدائم**" يجب أن تسأله هو! ولكنه لا يسمح لنفسه بالاقتراب.. إنه يهب أسرع من الشبح.. ثم إنك يجب أن تعلم أنني من "**روديز**" والسحرة وقارئو البخت دائما ما يجلبون لي سوء الحظ.

قال السيد "**السكرتير الدائم**" وهو يلمس يد مظلته:

– آه.. ولماذا؟

قالت "**بابيت**" وهي تلهث وبصوت منخفض:

– "**البنكال**".

- "**البنكال**"؟

– "**البنكال**" أي الأعرج، كان يستحضر قارئي البخت الذين يلعبون الموسيقى في الشارع حتى لا يسمعه أحد وهو يقتل ذلك المسكين السيد "**فوالديز**" ولكن هذا معروف جدا يا سيدي الدائم!

– نعم.. نعم أعرف.. قضية "**فوالديز**" ولكني لا أفهم.

- أنت لا تفهم؟ ولكن هل تسمع.. هل تسمع؟

ثم انحنت "**لا بابيت**" في حركة تراجيدية وقد لصقت أذنها بفتحة النافذة وبدا أنها تستمع لأشياء لا تصل على الإطلاق للسيد "**هيبوليت بانارد**" ومع ذلك لم يمنعه من أن ينهض في حركة إثارة شديدة. وقال وهو يجاهد أن يبدي بعض السلطة:

– ستقودينني في الحال إلى السيد "**مارتان لاتوش**" .

ولكن السيدة "**بابيت**" كانت قد سقطت في المقعد وهي تقول:

– أنا مجنونة! لقد صدقت.. ولكن هذا مستحيل وجود مثل تلك الأشياء.. ألم تسمع شيئا أنت يا سيدي الدائم؟

– لا.. لا شيء على الإطلاق.

- نعم –إنني سأصبح مجنونة مع قارئ البخت هذا الذي لا يتركنا أبدا.

- كيف هذا؟ إنه لا يتركنا أبدا.

- حسنا.. في وضح النهار في اللحظة التي لا أتوقعه على الإطلاق أراه في الفناء.. أطرده.. فأجده في السلم.. في ركن من الباب.. في أي مكان في كل ما يصلح لإخفاء صندوق الموسيقى. وفي الليل يتسكع تحت نوافذنا.

قال السيد "**السكرتير الدائم**" :

– هذا هو في الحقيقة أمر غير طبيعي!

– هل فهمت ذلك جيدا! نعم أنا لم أقله لك..

- وهل مضى وقت طويل وهو يتسكع ويحوم هنا؟

– من حوالي ثلاثة أشهر.

- وهل أغلب الأحيان هنا؟

– أوه.. إنه أحيانا تمر أسابيع دون أن يظهر. وأول مرة رأيته فيها كان في يوم..

ثم قطعت "**بابيت**" حديثها. سأل "**بانارد**" وقد اندهش لهذا الصمت المفاجئ:

– حسنا؟

همهمت الخادمة العجوز:

– هناك أمور لا يجب علي أن أقولها سيدي الدائم لقد أتى إلينا قارئ البخت في الوقت الذي تقدم فيه السيد "**لاتوش**" لأكاديميتك حتى بعد أن قلت له إن هذه علامة سيئة وهذا كان بالضبط في الوقت الذي مات فيه الآخران. وعندما أعدنا القول عن أكاديميتك فإنه في ذلك الوقت بالذات الذي عاد فيه لا.. لا... إن ذلك كله ليس طبيعيا! ولكني لا أستطيع أن أقول لك ذلك.

ثم هزت رأسها بقوة وكان السيد "**بانارد**" الآن في شدة الحيرة. عاد إلى الجلوس. استطردت "**بابيت**" وكأنها تحدث نفسها:

– هناك مرات أحاول فيها تنظيم الأمور وأقول إنها فكرة هكذا.. وفي "**روديز**" عندما كنا نرى في زمننا قارئ بخت كنا ننزف من أنوفنا والأطفال الصغار كانوا يلقونه بالحجارة وكان يهرب .

ثم أضافت وهي ساهمة:

– ولكن هذا.. يعود باستمرار.

قال السيد "**بانارد**" في تلميح:

– أنت تقولين إنك لا تستطيعين أن تقولي لي شيئا. هل الأمر يتعلق بقارئ بخت؟

– أوه.. إنه لا يوجد سوى قارئي البخت.

ولكنها هزت رأسها وكأنها تحاول أن تطرد رغبتها التي تملكتها في أن تتكلم. وكلما زاد هزها لرأسها زادت رغبة السيد "**بانارد**" في أن تتكلم، "**بابيت**". قال وهو مصمم على تحقيق خبطة كبرى:

– على أية حال هذان الميتان ربما لم تكن ميتتهما طبيعية ويمكننا أن نصدق ذلك. وإذا كنت تعرفين شيئا يا سيدتي فإنك ستكونين مذنبة أكثر منا نحن جميعا. عن كل ما يمكن أن يحدث.

ضمت "**لابابيت**" يديها وكأنها تمثال من حجر.

- لقد أقسمت بالله العظيم.

نهض السيد "**بانارد**" في الحال:

– قوديني يا سيدتي إلى سيدك.

فزعت "**لابابيت**" واقفة وسألته:

– إذن هل كل شيء انتهى؟

سألها السيد "**السكرتير الدائم**" بصوت خشن:

– ماذا الذي انتهى إذن؟

– لقد سألتك هل انتهى؟ لقد انتخبته في أكاديميتك.. إنه سيذهب.. وسيقدم المديح لمطرانك "**دابيفيل**"؟

– ولكن نعم يا سيدتي!

– وسيقدم مديحه.. أمام كل الناس؟

– بالتأكيد.

- مثل الآخرين؟

– مثل الاثنين الآخرين؟ يجب أن يفعل ذلك!

ولكن صوت "**السكرتير الدائم**" لم يعد خشنا على الإطلاق وكان يرتجف بعض الشيء. قالت "**لابابيت**" في هدوء وقد رسمت علامة الصليب:

– حسنا.. أنتم قتلة!.. ولكني لن أسمح بقتل السيد "**لاتوش**" وسأنقذه رغما عن أنفه. ورغم ما أقسمت عليه. اجلس يا سيدي "**السكرتير الدائم**"! سأقص عليك كل شيء.

ثم ركعت على ركبتيها على البلاط:

– لقد أقسمت بمجدي وقد حنثت بقسمي.. ولكن الله العظيم الذي يقرأ في قلبي سيسامحني وهذا بالضبط ما حدث.

كان السيد "**بانارد**" ينصت في نهم إلى "**بابيت**" وهو ينظر إلى الشارع عن طريق مصراعي النافذة كان قد شاهد أن قارئ البخت قد عاد وأنه يرفع عينيه الرامشتين في الفضاء وهو يراقب شيئا ما فوق رأس السيد "**بانارد**" في الدور الأول. ارتجف السيد "**بانارد**" ومع ذلك ظل سيد نفسه حتى لا يأتي بحركة مفاجئة فيكشف لـ"**بابيت**" عما يجرى في الشارع. وبالتالي حتى لا تقطع روايتها، إنها وهي راكعة على ركبتيها لا تستطيع أن ترى شيئا ولن تحاول أن ترى شيئا. كانت تتكلم بصعوبة وهي تزفر وتتنهد وفي خط واحد وكأنها على كرسي الاعتراف وكأنها تحاول بأسرع وقت التخلص مما يثقل ضميرها:

- لقد حدث إذن بعد يومين من عدم رغبتكم في انضمام سيدي إلى أكاديميتكم (لأنه في ذلك الوقت لم ترغبوا ذلك وأخذتم بدلا منه السيد "**دالني**") إيه حسنا! وفي بعد ظهر يوم كان فيه الضباب ومع ذلك بقيت في المطبخ دون أن يعرف السيد "**لاتوش**" شيئا ورأيت سيدا ياتي، الذي عثر بنفسه على السلم ليصعد إلى سيدي الذي كان قد أغلق باب حجرته عليه. لم يسبق لي أن رأيته من قبل. وبعد خمس دقائق وصل سيد آخر لا أعرفه هو الآخر... وصل بدوره وصعد هو الآخر بسرعة وكأنه يخاف شيئا أو من أن يراه أحد وسمعت بطرق الباب.. باب المكتبة الذي انفتح في الحال. وأصبح الثلاثة في المكتبة: السيد "**لاتوش**" والآخران المجهولان.. وبعد ساعتين مرتا هكذا.. والمكتبة تقع بالضبط فوق المطبخ.. والذي ادهشني أكثر أنني حتى لم أسمعهم يتمشون. لم أسمع شيئا وقد حيرني ذلك كثيرا وأعترف أنني فضولية. إن السيد "**لاتوش**" لم يحدثني عن تلك الزيارتين.

صعدت بدوري والصقت أذني بباب المكتبة ولكني لم أسمع شيئا. فطرقت الباب ولم يرد علي أحد.. يا إلهي! لقد طرقت مرة ثانية ولم يرد علي أحد.. فتحت الباب... لم أجد أحدا بالداخل.. ولما لم يكن هناك سوى باب واحد وهو باب المكتب الذي يؤدي إلى المكتبة خارج باب الدخول فقد ذهبت إلى ذلك الباب ولكني ازددت دهشة لأنه لم يسبق لي أن دخلت أبدا مكتب السيد "**لاتوش**" ولم يسبق لسيدي أبدا أن استقبل فيه أحدا. إنها عادة مهووسة للسيد "**لاتوش**" الطيب.. لقد كان هناك يكتب وحتى يتأكد من أن أحدا لن يزعجه عندما يكون بداخله.. كان يجلس فيه وكأنه في قبر. وغالبا ما كان يتنازل لي عن أمور أطلبها منه في تعقل، ولكنه لم يتنازل لي أبدا عن منعي من الدخول هناك. وكان قد صنع مفتاحا خاصا ولم أستطع أنا ولا أي شخص آخر الدخول إلى المكتب الصغير وكان بالداخل يضع كل شيء بنفسه وكان يقول لي إن هذا الركن خاص بي يا "**بابيت**" كل ماعداه ملك لك تمسحيه وتدعكيه وهكذا حبس نفسه بالداخل مع رجلين لا أعرفهما إذن تصنت... وحاولت عبر الباب أن أفهم ما الذي يجري وما يقال. ولكنهم كانوا يتحدثون بصوت منخفض جدا وغضبت لأنني لم أستطع السماع. وفي النهاية أعتقدت أنني فهمت ان هناك مناقشة.. وفجاة تصاعد صوت سيدي وقال وهذا ما سمعته بوضوح "هل هذا ممكن لن تكون هناك جريمة أشنع من ذلك في العالم! هذا ما سمعته!.. بأذني! هذا كل ما سمعته ولازلت منه ذاهلة. عندما فتح الباب ألقى المجهولان بنفسيهما

علي. صاح السيد "**لاتوش**" الذي أغلق الباب بعناية على مكتبه.

- لا تؤذياها!

ثم جاء إلى ناحيتي وقال لي:

– إننا لن نسألك يا "**بابيت**" ولن نستجوبك. هل سمعت أم لم تسمعي! ولكنك ستركعين على ركبتيك وتقسمين باسم الله العظيم إنك لن تتحدثي أبدا لأحد على قيد الحياة بما استطعت سماعه وما رأيته! لقد ظننت أنك خرجت أنت إذن لم تشاهدي هذين السيدين يأتيان إلى بيتي. أنت لا تعرفيهما. اقسمي على ذلك يا "**بابيت**" . ثم نظرت إلى سيدي. لم يسبق لي أن شاهدت وجهه بهذا الشكل. هو الذي عادة ما يكون رقيقا وأفعل به ما أشاء –رأيت الغضب قد حوله وغير من شكل وجهه. كان يرتجف من الغضب! وكان المجهولان قد انحنيا على وجهيهما يهدداني. سقطت على ركبتي وأقسمت بكل ما أرادوا.. ثم رحلا الواحد بعد الآخر وهما يتلفتان حولهما في حذر، هبطت وأنا ميتة أكثر مني حية إلى المطبخ وشاهدتهما يبتعدان عندما لمحت.. بالضبط.. لأول مرة.. قارئ البخت! كان واقفا كما كان يفعل من قليل تحت مصباح الشارع.. رسمت علامة الصليب. لقد كان النحس فوق البيت.

كان السيد "**السكرتير الدائم**" وكله آذان صاغية إلى العجوز "**بابيت**" تابع بعينيه حركات قارئ البخت وقد تأثر به جدا خاصة وقد رآه يأتي فوق الصندوق بحركات غامضة.. أخيرا ومرة أخرى اختفى الصندوق الذي يسير وسط الليل.

نهضت "بابيت" وكررت:

– لقد انتهيت ووصفت.. لقد كان النحس فوق البيت.

سألها السيد "بانارد" الذي كانت حكاية المربية العجوز قد أقلقته فوق التصور.

- وهذان الرجلان.. هل رأيتهما مرة ثانية؟

– هناك واحد لم أره أبدا يا سيدي الدائم، لأنه مات لقد رأيت صورته في الجرائد، إنه كان السيد "مورتيمر".

قفز السيد ""السكرتير العام"" فزعا وصائحا:

– "مورتيمر"... والثاني؟

– والثاني؟ لقد رأيت أيضا صورته في الجرائد، إنه كان السيد "دالني".

– وهل رأيت هذا الأخير مرة ثانية؟

– نعم.. هذا الأخير رأيته ثانية.. لقد عاد إلى هنا في ليلة مقتله يا سيدي "الدائم".

– ليلة مقتله.. قبل أمس؟

– آه.. قبل أمس.. لقد قلت لك كل شيء لقد كان من الضروري أن أقول ذلك.. وهو ما كان أن يصل إلا ورأيت قارئ البخت في الفناء! وما إن رآني حتى هرب كالعادة. ولكنني اعتقدت في الحال أنها علامة نحس.. علامة نحس! لقد كانت عمتي الكبرى تقول لي ذلك دائما يا سيدي "الدائم" " "بابيت"! لا تثقي أبدا بقارئ البخت" وكانت عمتي الكبرى قد وصلت إلى سن متقدمة جدا لم تكن تعرف ذلك عن فراغ يا سيدي "الدائم".

إنها تسكن أمام "البنكال" في بلدنا في "روديز" في الليلة التي قتلوا فيها السيد "فوالديز" وقد سمعت لحن الجريمة. اللحن الذي يزعج به قارئ البخت وعازف الأرغن الناس في الطريق بينما "العرجاء بنكال" و"باستيد" جالسان على المائدة والآخرون ممسكون برقبة المسكين.. لقد كان لحنا... سيظل دائما في أذنيه.. وفي أذني المرأة العجوز المسكينة عمتي الكبرى والذي كانت قد غنته لي في مرة في سرية تامة حتى أتذكره.. إنه لحن.. لحن

ثم انتصبت "لابابيت" فجأة في حركات تشبه حركات الإنسان الآلي أو المنوم مغنطيسيا. كان وجهها مضاء بنور المصباح الزيتي الأحمر الشاحب المواجه للبيت ويعبر عن رعب لا يوصف. وقد مدت ذراعها مشيرة إلى الشارع حيث كانت تأتي لازمة موسيقية مكررة وبطيئة وبعيدة وحزينة.. قالت في رعب:

– لقد كان هذا هو اللحن..إنه هو اللحن!

الفصل الرابع

"مارتان لاتوش"

وفي الحال سمع بالضبط فوق المطبخ حيث يقع مكتب "لاتوش" فرقعة ضخمة وضجة انقلاب الأثاث وكأنها معركة حقيقية. وكان السقف يرن ويهتز وصرخت "لابابيت".

- إنهم يقتلونه! النجدة!

واندفعت إلى المدفأة أخذت منه محرك الجمر واندفعت خارج المطبخ عابرة القبو وصعدت درجات السلم المؤدية إلى الدور الأول.

همهم السيد "بانارد":

– يا إلهي!

وظل في مكانه والقلب ينبض بشدة وقد نزع منه الخوف كل قوة. وانهار من رعب الموقف ومع ذلك في الشارع كان اللحن المألوف التاريخي والرهيب يطول ويطول بنغمته الهادئة المتآمرة على ارتكاب أعمال بغيضة. موسيقى الشيطان التي كانت لاتزال تمنع سماع صرخات المخنوق والتي كانت تصل مغطية على أية ضجة أخرى إلى أذني السيد "هيبوليت بانارد" فتملأهما طنينا. وحتى قلبه المتجمد.

ظن أنه سيفقد الوعي. ولكن العار الذي أحسه فجأة من جبنه جعله يمسك بالشعاع الغامض الذي يمنع النفس البشرية من السقوط والانهيار. تذكر الزمن الذي كان فيه "السكرتير الدائم" لمجمع الخالدين وعندما فعل ذلك لثاني مرة في تلك الليلة المثيرة والتضحية بحياته البائسة، اندفع بجهد أخلاقي شديد وجسماني قاده بعد لحظات مسلحا في يده اليسرى بالمظلة وفي اليمنى بزوجي ملقاط فحم إلى أمام الباب في الدور الأول والتي كانت "بابيت" تدقه بعنف بمحرك الجمر والذي انفتح في الحال. قال صوت واهن وإن كان مسموعا:

– ألازلت مخبولة يا عزيزتي "بابيت"؟

كان على عتبة الباب رجل في الستين من عمره لايزال قوي الجسد وشعره أشهب

ومجعد وله لحية جميلة بيضاء تحيط بالوجه الوردي الممتلئ وعيناه جميلتان.. كان هذا هو "مارتان لاتوش"! ما إن رأى السيد "هيبوليت بانارد" وهو ماسك بيديه ملقاط الفحم ومظلته حتى لم يستطع أن يكتم ابتسامته وسأله وهو ينحني في احترام:

– هذا أنت يا سيدي "السكرتير الدائم"؟ ما الذي حدث؟

صاحت "بابيت" وهي تلقي بمحرك الجمرات :

– أنت يا سيدي.. نحن الذي نسألك ماذا جرى؟ ما الذي يمكن بحق السماء أن يصنع مثل تلك الضجة؟ لقد ظننا أنهم يخنقونك! مع ما سمعناه كان قارئ البخت (العراف) يعزف باستمرار لحن "فوالديز" في الشارع تحت نوافذنا.

رد "مارتان لانوش" في هدوء:

– على العراف أن يفعل خيرا لو ذهب لينام. وأنت كذلك يا عزيزتي "بابيت".

ثم استدار نحو "السكرتير الدائم" :

– سيدي "السكرتير الدائم". إنني أشعر بالفضول الشديد أن أعرف سبب تشريفي في هذه الساعة بزيارة فخامتكم.

كان "مارتان لاتوش" وهو يقول ذلك قد أدخل السيد "بانارد" إلى المكتبة وخلصه من زوجي ماسك الفحم.. وتبعتهما "بابيت".

نظرت فيما حولها.. كان الأثاث كله مرتبا.. الموائد والأصونة والأرفف في مكانها المعتاد. صاحت:

– ولكن يا سيدي: "السكرتير الدائم" وأنا.. لابد أننا كنا نحلم.. أكاد أقسم إننا سمعنا معركة هنا ونقل الأثاث.

- اطمئني يا "بابيت" أنا الذي قمت بتحريك مقعد ذي مساند من مكانه بطريقة نزقة والآن قولي لنا تصبحان على خير!

أخذت "بابيت" تنظر في توجس وشك إلى الباب الذي لم يفتح لها أبدا ثم زفرت:

– أنت دائما لازلت تشك في هنا!

– ارحلي يا "بابيت"..

- أنا أقول إننا لا نريد الأكاديمية بعد الآن.

- هل يمكن أن تذهبي يا "بابيت"!

– ومع ذلك لازلنا على نفس الحال.

- "بابيت" !

– ونكتب خطابات لا نضعها في صندوق البريد.

– إن هذه العجوز الخادمة لا تطاق يا سيدي "السكرتير الدائم".

- إننا (تقصد "مارتان لاتوش") نغلق على نفسنا بالمفتاح ونديره مرتين في المكتبة ولا يفتح لنا إلا بعد أن نوشك أن نحطم الباب.

- أنا أغلق ما أريده.. وأفتح ما أريده.. أنا السيد هنا.

- هذا ما لا نناقشه.. أنت دائما سيد الأفعال الحمقاء.

- "بابيت" هذا يكفي!

– وتستقبل في السر غرباء مجهولين.

- ماذا؟

– مجهولون من الأكاديمية.

- لا يوجد مجهولون في الأكاديمية يا "بابيت".

- هذان لم يكونا معروفين إلا بعد أن ماتا!

ما إن نطقت الخادمة بتلك الكلمات الأخيرة حتى قفز الرجل الطيب "مارتان لانوش" ماسكا بخناقها وصاح:

– اخرسي!

كانت هذه أول مرة يلجأ فيها السيد "مارتان لاتوش" إلى طرق عملية مع خادمته. ندم في الحال على حركته وكان بشكل خاص يشعر بالعار أمام السيد "هيبوليت بانارد" ثم اعتذر قائلا وهو يحاول أن يكبح جماح انفعاله الذي كان من الواضح أنه يخنقه:

–لكن تلك العجوز المجنونه "بابيت" قد جعلتني في ذلك المساء أحنق عليها وأغتاظ وهناك لحظات أكثر هدوءا. آه.. إن عناد النساء رهيب تفضل إذن بالجلوس يا سيدي..

ثم قدم السيد "لاتوش" مقعدا ذا مساند إلى السيد "السكرتير الدائم" وقد أدار ظهره إلى "بابيت" ثم أدار هو ظهره لـ"بابيت" وهو يحاول أن ينسى أنها موجودة مادامت لا تريد الرحيل.

قالت "بابيت" فجأة:

– يا سيدي! بعدما فعلته فانني أتوقع كل شيء وربما ستقتلني.. ولكني قلت كل شيء للسيد "الدائم" .

دار "مارتان" حول نفسه فجاة. وفي تلك اللحظة كان رأسها كله في الظل ولم يستطع السيد "بانارد" أن يقرأ على ذلك الوجه المظلم العواطف التي تحركه وتشغله، ولكن يد الرجل التي وضعها على المائدة كانت ترتجف. واستغرق "مارتان لاتوش" بضع ثوان قبل أن يستطيع أن ينطق كلمة. أخيرا سيطر على مشاعره وقال بصوت متغير:

– ما الذي قلته للسيد "السكرتير الدائم" يا "بابيت"؟ كانت هذه أول مرة يخاطب المربية بصيغة المخاطب أمام السيد "السكرتير الدائم". وقد لاحظ الأخير ذلك وأنه علامة واضحة على خطورة الموقف.

- لقد قلت للسيد "الدائم" أن السيدين "مورتيمر" و"دالني" حضرا لمقابلة سيدي هنا وأنهما أغلقا الباب عليهما مع سيدي في المكتب الصغير قبل الذهاب ليموتا عند تقديم خطاب المديح في الأكاديمية.

- ولكنك أقسمت أن تصمتي يا "بابيت".

- ولكني لم أتكلم إلا لأنقذ سيدي.. لأنني إذا لم احترس لذلك فإن سيدي سيذهب إلى هناك ليموت مثل الآخرين.

قال "مارتان لاتوش" بصوت باتر:

– حسنا.. وماذا أيضا أخبرت به السيد "السكرتير الدائم"؟

– لقد قلت له ما سمعته وأنا أتصنت خلف الباب الخاص بمكتبك الصغير.

قال "مارتان لاتوش" الذي كف لفترة عن مناداتها بالمجهول :

– "بابيت"! اسمعيني جيدا! إن ما قد يبدو خطيرا بالنسبة للسيد "بانارد" يا "بابيت" لا أعرفه، كما أنني لم أسأله عم سمعته خلف الباب أليس هذا صحيحا يا "بابيت"؟

– هذا صحيح يا سيدي.

- لقد أقسمت أن تنسيه وأنا لم أسألك لأنني اعتبرت الأمر تافها، ولكن مادمت تتذكرين ما الذي سمعته فإنك ستقولين لي أنا ما الذي قلته للسيد "السكرتير الدائم".

- هذا من العدل تماما يا سيدي. لقد قلت له إنني سمعت صوتك وأنت تقول لا! لا!

هذا غير ممكن! ولن تكون هناك جريمة أكبر من ذلك في العالم!

بعد هذا الإعلان من "بابيت" لم يقل "مارتان لاتوش" شيئا وبدا ساهما يفكر. لم تعد يده على المائدة بل بالحقيقة لم يعد يُرى. لقد انسحب حتى أكثر أركان الحجرة عتمة. وقد فزع السيد "بانارد" أكثر من الصمت الساحق الذي ران على الدار العتيقة أكثر من الضجة التي كان قد أحدثها العراف بلحنه في الشارع من فترة. لم يعد يسمع العراف. ولم يعد أحد يسمع.. لا شيء. وأخيرا قال "مارتان لاتوش" :

– أنت لم تسمعي شيئا آخر يا "بابيت" وأنت لم تقولي شيئا آخر يا "بابيت" .

- لا شيء يا سيدي.

- إنني لا أتجرأ وأقول لك أن تقسمي لأنه لا جدوى منه.

- لو أنني سمعت شيئا لقلته للسيد "الدائم" لأنني أريد إنقاذك. ولو أنني قلت له فعلا ما أنكرت ذلك لقد قلت له إنني لم أسمع شيئا آخر.

أطلق السيد "مارتان لاتوش" ضحكة عارمة أمام الذهول البالغ لكل من الخادمة والسيد "السكرتير الدائم" كانت ضحكة صافية خالية من الهموم. تقدم ناحية "بابيت" وربت خدها:

– هيا.. أفيقي! لقد أرادوا أن يسببوا لك الخوف أيتها العجوز الحمقاء! أنت فتاة شجاعة وأنا أحبك جيدا ولكني مضطر للحديث مع السيد "السكرتير الدائم".. إلى اللقاء غدا يا "بابيت" !

– إلى اللقاء يا سيدي وليحفظك الله! لقد قمت بواجبي ،ثم حيت بطريقة رسمية جدا السيد "بانارد" وذهبت وهي تغلق باب المكتبة وراءها بعناية.

استمع "مارتان لاتوش" إلى خطوات الخادمة وهي تهبط الدرج ثم عاد إلى السيد "هيبوليت بانارد" وقال له في لهجة مرحة:

– آه من تلك الخادمات العجوزات! إنها مخلصة جدا ولكن أحيانا تصبح خانقة. لابد أنها حكت لك حكايات! إنها مخبولة بعض الشيء. لقد أفسد موت الزميلين في الأكاديمية عقلها وقلب كيانها .

رد السيد "هيبوليت بانارد" :

– يجب أن تعذرها.. هناك في باريس آخرون لديهم تعليم وثقافة أكثر منها ومع

ذلك جن جنونهم من الحادثتين. ولكني سعيد يا زميلي العزيز أن أرى في هذه الحادثة المحزنة أنها مجرد مصادفة مفجعة.

- أنا كما تعلم لست من المتطيرين.

همهم المسكين "بانارد" الذي ظل متأثرا من كل الصراخ وكل الرعب الخاص بـ"بابيت".

- دون أن تكون متطيرا.

- سيدي "السكرتير الدائم" لقد سمعت هنا في هذا المكان كما قصت عليك الخادمة المجنونة السيد "ماكسيم دالني" مساء أول أمس.. في ليلة مصرعه وأستطيع أن أقول لك بكل ثقة إنه كان مصدوما من موت السيد "مورتيمر" بعد تهديدات "اليفاس" العلنية لقد كان السيد "ماكسيم دالني" مصابا بمرض في قلبه وعندما تلقى مثل السيد "مورتيمر" الخطاب الذي أرسله دون شك مازح ثقيل ورهيب لابد أنه أحس بضربة رهيبة رغم شجاعته الواضحة وبانسداد في شرايين القلب ذهب إلى بارئه.

نهض السيد "هيبوليت بانارد" وقد انتفخ صدره بالهواء ثم أطلق إحدى زفراته التي يمكن أن تعيد الحياة إلى غطاس مكث أكثر من اللازم تحت الماء وقال:

– آه يا سيد "مارتان لاتوش" لقد أزحت الغمة عن صدري وأنا أسمعك تقول هذا! أنا لا أخفي عليك أنه مع كل تلك الحكايات من "بابيت" بدأت أنا نفسي في الشك في الحقيقة البديهية التي يمكن أن تفقأ عيني أي رجل له عقل ورشاد.

قال "مارتان لاتوش" في تراجع بعض الشيء:

– نعم.. نعم.. أنا أرى ذلك من هنا.. العراف! وذكريات السيد "فوالديز" ولقاءاتي مع السادة "مورتيمر" و"دالني".. وموتهما المزعج.. والعبارات الرهيبة التي سمعتها في مكتبي الصغير الغامض.

قاطعه "هيبوليت بانارد":

– هذا صحيح... ولست أدري ماذا أفكر أو أظن بعد.

أمسك السيد "مارتان" بيدي السيد "السكرتير الدائم" بثقة تامة وصداقة مفاجئة:

وقال مبتسما :

– سيدي "السكرتير الدائم". إنني أرجوك أن تدخل مكتبي الغامض.. يجب أن تعرف كل اسراري وأريد أن أستأمنك عليها... أنت أيها الرجل العجوز مثلي من الجيل الماضي.. أنت ستفهمني! ودون أن تضطر إلى إسعادي فإنك ستبتسم منها..

ثم سحب السيد "مارتان لاتوش" السيد "السكرتير الدائم" ووصل إلى الباب الصغير للمكتب الغامض والذي فتحه بمفتاح خاص (المفتاح الذي لا يتركه أبدا).

- هذه هي المغارة!

كانت حجرة مساحتها بضعة أمتار مربعة، وكانت نافذتها لاتزال مفتوحة. وكانت فيها مائدة ومقعد ذوا مساند منقلبين وأوراق وأشياء منوعة مبعثرة في فوضى عارمة. وكان مصباح فوق بيانو يضيء قليلا بالقرب من الجدران حيث علقت آلات الموسيقى الأكثر غرابة. ووسط هذه "الروبابيكيا" فتح السيد "بانارد" عينيه على آخرهما في قلق.

أما بالنسبة لـ"مارتان لاتوش" بعد أن أغلق الباب بالمفتاح ذهب إلى النافذة. ثم نظر إلى الخارج لحظة ثم أغلق تلك النافذة أيضا. وقال:

– هذه المرة أعتقد أنها رحلت فعلا. لقد فهمت أن هذه الليلة أيضا أنه ليس هناك مالا يمكن فعله. سأل السيد "هيبوليت بانارد" الذي بدأ يطمئن.

- عن أي شيء تتحدث؟

– أوه.. ولكن عن العراف كما تقول "بابيت".

ثم بدأ يعدل من وضع المائدة والمقعد ذي المساند بكل هدوء ثم خرج وابتسم بكل ما في وجهه الطفولي من براءة للسيد "السكرتير الدائم" وقال له بصوت منخفض:

– أنت ترى يا سيدي "السكرتير الدائم" هنا أنني فعلا في داري! إن المكان ليس مرتبا كما هو الحال في بقية الحجرات ولكن "بابيت" ليس من حقها أن تطأها بقدميها..! إنني هنا أخفي الآلاتي الموسيقية. كل مجموعتي. آه لو علمت "بابيت" لوضعت كل هذا في النار...! نعم.. نعم وايم الحق في النار! وقيثارتي العتيقة من الشمال وغيرها والتي يرجع تاريخها إلى ما بعد القرن الخامس عشر وآلتي "النابولون" و"بسالتيرون" و"جيترني" و"آرشيلوثي" و"ثيوربي".. كل ذلك في النار

و"ماندوري".. آه انظر إلى "جيترني"! إنه أقدم جيتار عرف حتى الآن. حسنا..إنها كان بإمكانها أن تلقي بكل هذا في النار. نعم.. نعم هذا ما أقوله لك.. آه! إنها لا تحب الموسيقى.

ثم أطلق "مارتان لاتوش" زفرة تقطع نياط القلوب خاصة قلب السيد "هيبوليت بانارد" استمر رجل الألحان وعالم الموسيقى العجوز.

– وكل هذا بسبب أنها كبرت وسط تلك الرواية البلهاء الخاصة بـ"فوالديز"... في شبابنا في "روديز"! ووقتها لم يكن الناس يتحدثون إلا عن العراف الذي يدير ذراع البيانولا أمام "البنكال" بينما يقومون بذبح ذلك المسكين التعس. إن "بابيت" يا سيدي "السكرتير الدائم" لم تستطع أن ترى أي آلة موسيقية.. ولكن تعرف أبدا وعلى الإطلاق كل التصورات والتخيلات التي احتجتها حتى أدخل تلك الآلات الموسيقية إلى بيتي. خذ مثلا في هذه اللحظة أريد أن أشتري أرغنا بربريا "بيانولا" كما كان في الماضي يسمونه، ولكنه واحد من أقدم البيانولات على الإطلاق. تصور أنها ضربة حظ أن اكتشفته! والشيطان المسكين الذي كان يطحن بهذه الآلة لم يكن يشك على الإطلاق أي كنز يوجد بين يديه. لقد رأيته في ركن الكوبري الجديد على الرصيف في مساء يوم ما حوالي الرابعة.. لقد طلب الرجل صدقة.. وأنا رجل أمين وشريف فعرضت عليه خمسمائة فرنك مقابل صندوقه الموسيقي القديم وتمت الصفقة في الحال: ثروة بالنسبة له وبالنسبة لي! في الحقيقة لم أكن أريد أن أسرقه ووعدته بما معي.. ولكن الذي كان من الصعب تسويته هي الطريقة التي أمتلك بها الآلة! وكان من المفهوم أنني لم أكن لأوقع شيئا لولا أنني كنت واثقا بأن "بابيت" لا تعرف شيئا عن أي شيء.. إنه يا سيدي مثل القدر المحتوم.. لقد كانت دائما هناك عندما وصل الآخر.. لقد قابلته في الفناء على السلم في اللحظة التي كنا نعتقد فيها أنها رحلت. ثم حدثت مطاردة من كل الشياطين! ولحسن الحظ أن الآخر كان رشيقا. وفي هذا المساء كان من المفهوم أن "بابيت" نائمة وأنا أرفع الآلة بواسطة أحبال مباشرة إلى المكتب الصغير. وكنت قد صعدت بالفعل فوق مائدة وكنت سألقي الأحبال ثم حدث ما حدث.. عندما انقلبت المائدة.. عندئذ وصلتما معتقدين أنهم يقتلوني. آه! لقد كنت حقا غريبا يا سيدي "السكرتير الدائم" بمظلتك وزوجي ملقاط الفحم .. فعلا مثيرا للضحك ولكن شجاعا

على أية حال.

ثم أخذ السيد "مارتان لاتوش" يضحك وضحك السيد "هيبوليت بانارد" أيضا. لم يضحك من صورته الخاصة التي رسمها "مارتان لاتوش" فحسب وإنما أيضا من خوفه الخاص أمام الصندوق الذي يسير وهكذا أصبح كل شيء مفسرا، لكن كل شيء أليس من المفروض أن يفسر نفسه بطريقة طبيعية؟ هناك لحظات فيها الإنسان لا يكون متعقلا أكثر من طفل. هل كان مثيرا للسخرية مع "بابيت" وحكايتها كلها مع العراف!

آه! بعد مثل تلك الانفعالات القاسية إنها لحظة طيبة! أحس السيد "بانارد" بالأسى على مصير ذلك الفتى العجوز "مارتان لاتوش" الذي تحمل مثل آخرين للأسف طغيان الخادمة العجوز.

- لا تجعلني أشكو لك كثيرا. لولا أن عندي "بابيت" لكنت على الحديدة منذ وقت طويل بسبب أعمالي الجنونية وإمكانياتي المتواضعة. لسنا أغنياء وقد ارتكبت حماقات حقيقية في البداية من أجل مجموعتي! إن هذه الطيبة "بابيت" كانت مضطرة لشد الحزام وحرمت نفسها من كل شيء من أجلي..! وكانت ترعاني كأم، ولكنها لم تكن تستطيع أن تسمع الموسيقى. بعد أن سرد "مارتان لاتوش" هذا مرر يده على آلاته الغالية في إعزاز ،تلك الآلات التي كانت روحها المسكينة النائمة لا تنتظر سوى ربت الأصابع لتتأوه مع سيدها..

- إذن إنني أربت عليها برقة شديدة.. شديدة للغاية حتى إنه لا يوجد سوانا يعرف أننا نبكي ثم... في بعض الأحيان.. عندما نجحت في إرسال "بابيت" لجولة شراء.. فإنني آخذ "جيتاري" الصغير العتيق الذي وضعت فيه أقدم أوتار استطعت العثور عليها وأعزف ألحانا بعيدة وكأني غجري رحال حقا.. لا.. لا.. لست تعيسا جدا يا سيدي "السكرتير الدائم"! صدقني..! ثم لابد أن أقول لك إن لدي بيانا خاصا بي! ولذلك أصنع كل ما أريده بالبيانو الخاص بي، إنني أعزف كل الألحان التي أريدها... ألحانا رهيبة.. كل المارشات.. آه.. إنه بيان فخم لا يزعج "بابيت" على الإطلاق عندما تغسل مواعينها.

عندئذ سارع "مارتان لاتوش" إلى بيانو ثم مرر أصابعه على أصابع البيانو في غضب

حقيقي. انتظر "هيبوليت بانارد" أن يسمع صوت البيان المزعج. ولكن رغم كل الأعمال الخشنة التي عاناها من صاحبه فقد ظل صامتا. إنه بيانو صامت الذي لا يصدر بأي حال من الأحوال أي صوت والذي صنع من أجل هؤلاء الذين يريدون التمرين على السلم الموسيقي دون أن يزعجوا آذان جيرانهم.

قال "مارتان لاتوش" وقد ألقى برأسه للخلف وخصلات شعره تتطاير مع الهواء الصادر من تنفسه وعيناه إلى السماء ويداه متقافزتان:

– أحيانا ما أعزف عليه طوال النهار.. ولا يوجد أحد سواي يسمعه! ولكنه يصيب المرء بالصمم، إنه فرقة موسيقية حقيقية.

ثم فجأة أغلق البيان ثانية ورأى السيد "بانارد" أنه يبكي فاقترب السيد "السكرتير الدائم" من هاوي الموسيقى وقال برقة شديدة:

– يا صديقي..

رد "مارتان لاتوش" بصوت متقطع:

– أوه!.. أنت طيب.. أعلم أنك طيب! ونحن سعداء لوجودنا في جمعية بها رجل مثلك والآن أنت تعلم كل مصاعبي وبؤسي ومكتبي الصغير الغامض الذي تم فيه كل تلك اللقاءات الغامضة.. وأنت تعرف لماذا أنا في مثل هذا القلق عندما علمت أن عجوزتي "بابيت" قد تصنتت من وراء الباب.. إنني أحب مربيتي جدا ولكني أيضا أحب جيتاري الصغير وأريد مخلصا ألا افترق عن أيهما.. رغم أنه أحيانا هنا (ومال "مارتان لاتوش" على أذن "السكرتير الدائم") لا يوجد ما يؤكل.. ولكن... هدوء! آه يا سيدي "السكرتير الدائم" أنت من الجيل القديم ولكنك لست من المقتنين هواة جمع الأشياء النادرة! إن روح المقتني رهيبة بالنسبة لجسد رجل عجوز! نعم.. نعم.. لحسن الحظ أن "بابيت" موجودة هنا.. ولكني سأحصل على "البيانولا" على أية حال الآلة التي تعطي ألحانا قديمة.. أرغن ربما كان قد استخدم في قضية "فوالديز" نفسها.. من يدري؟

مسح "مارتان لاتوش" بظهر يده العرق عن جبينه:

– هيا بنا.. فقد تأخر الوقت.

وبكل حذر شديد جعل السيد "السكرتير الدائم" يعبر المكتب الغامض الصغير

داخل المكتبة الكبيرة وبعد أن أغلق الباب الغالي الثمين قال:

– نعم الوقت متأخر جدا.

- هناك كلام يدور حول أنك ترفض مقعد مطران "دابيفيل".. وقد نشرت صحف المساء ذلك.

أعلن "مارتان لاتوش" بصوت قاسي:

– إنها حماقات.. حماقات! إنني سأبدأ في الحال في إعداد المرتبة الثلاثية لكل من مطران "دابيفيل" و"جيهان مورتيمر" و"ماكسيم دالني".

قال السيد "هيبوليت بانارد":

– غدا سأرسل بيانا للصحف ولكن قل لي يا زميلي العزيز.

- تكلم.. ماذا هناك؟

– ربما أكون فضوليا وأتدخل فيما لا يعنيني!

بدا السيد "هيبوليت بانارد" محرجا حقا. كان يدير ويدير يد مظلته ثم قرر أخيرا:

– لقد بحت لي بأسرار كثيرة تجعلني أتجرأ.. وأسالك في البداية وهذا ليس تطفلا عما إذا كنت تعرف السيدين "مورتيمر" و"دالني"؟لم يرد "مارتان لاتوش" في الحال وإنما ذهب ليأخذ المصباح من فوق المائدة ليرفعه فوق رأس السيد "هيبوليت بانارد" وقال:

– إنني سأصحبك يا سيدي "السكرتير الدائم" حتى باب الشارع مالم تكن تخشى اللقاءات السيئة وفي تلك الحالة سأصحبك إلى بيتك.. ولكن الحي رغم مظهره المقبض هادئ جدا.

- لا.. لا.. يا زميلي العزيز.. أرجوك لا تزعج نفسك.

قال "مارتان لاتوش" دون إلحاح:

– كما تحب.. وسأنير لك الطريق.

كانا الآن عند عتبة الباب ورد عضو الأكاديمية الجديد وقتها على السؤال الذي طرح عليه.

- نعم.. نعم.. بالتأكيد أنا أعرف "جيهان مورتيمر" و"ماكسيم دالني" تمام المعرفة..

لقد كنا أصدقاء قدامى.. زملاء قدامى.. وعندما التقينا على نفس الدرجة عند مقعد مطران "دابيفيل" قررنا الأمور تسير على هواها وألا نحتار وأن نجتمع معا أحيانا للحديث حـول الموقف. مرة عند كل منا وحكاية تهديدات "اليفاس" بعد انتخاب "مورتيمر" كانت بالنسبة لنا موضوع حديث مازح ومسل.

- إن ذلك الحديث قد ضايق "بابيت" وهنا يا زميلي العزيز ربما أظهرت بعض التطفل.. عن أي جريمة إذن كنت تتحدث عندما قلت: لا.. لا..! هذا مستحيل! إنه لن يكون هناك جريمة أشنع في العالم؟

جعل "مارتان لاتوش" السيد "بانارد" يهبط بضع درجات وهو يريده أن يتحسس السلم بكعب حذائه: ثم أجاب:

- إيه حسنا.. ولكن.. ليس هناك تطفل في ذلك على الإطلاق.. إنك ستضحك..! حسنا ولكني سبق أن قلت لك أن السيد "ماكسيم دالني" رغم أنه كان يمزح ويتهكم إلا أنه تأثر في أعماقه من كلمات التهديد من "اليفاس" الذي اختفى بعد أن نطقها.. وفي ذلك اليوم كان "ماكسيم دالني" بعد أن هنأ "مورتيمر" على انتخابه الذي حدث من يومين قبلها إلا أنه نصح الأخير وهو مستمر في المزاح بطريقة طبيعية والذي كان لايزال يفكر في خطبة حفل الاستقبال.. نصحه أن ينتبه لأن انتقام الساحر الشرير يتحفز له ألم يعلن الأخير أي "اليفاس" أن مقعد مطران "دابيفيل" سيكون مشؤوما قاتلا على من يتجرأ ويجلس عليه؟ عندئذ لم أجد ما هو أفضل... انتبه إلى درجة السلم هذه يا سيدي السكرتير "الدائم" -لم أجد ما هو أفضل من دعم تلك اللعبة- أرجوك أن تنتبه نحن تحت القبو الآن ثم صمت بقوة وتأكيد: لا.. لا! هذا مستحيل! ولن تكون هناك جريمة أشنع في العالم!

كان الرجلان في الحقيقة عند الباب الرئيسي سحب "مارتان لاتوش" شبكة ثقيلة من الحديد ثم أدار مفتاحا ضخما وهو يسحب الباب نحوه ثم فحص الميدان وقال:

- كل شيء هادئ.. كل الناس نيام! هل ترغب أن أصحبك يا سيدي "السكرتير الدائم"؟

- لا.. لا.. أنا غـبي..! أنا رجل مسكين غبي! آه! يا زميلي العزيز اسمح لي أن

أصافحك لآخر مرة .

- كيف تقول لآخر مرة. هل تعتقد أنني سأموت مثل الآخرين؟ أنا لا أصدق ذلك ثم إنني لست مصابا بداء القلب!

- لا.. لا.. أنا أحمق! يجب أن نأمل أن تكون الأوقات القادمة أقل تعاسة وأن تستطيع في يوم ما أن تضحك من كل ذلك! هيا الوداع! يا صديقي وزميلي الجديد.. وداعا.. وأحر تهاني القلبية.

كان قلب السيد "**هيبوليت بانارد**" شجاعا ومطمئنا وقد فرد مظلته ووصل بالفعل إلى الكوبري الجديد عندما نادى عليه "**مارتان لاتوش**" :

- هناك كلمة أخيرة.. لا تنس أن كل ما سمعته هي أسراري الخاصة.

- أوه.. أنت لا تعرفني... من المتفق على أنني لم أقابلك هذا المساء.. تصبح على خير يا صديقي العزيز.

الفصل الخامس

المحنة رقم "٣"

جاء اليوم المشهود. كانت الأكاديمية قد حددته في الأيام الخمسة عشر التالية للجنازة الرسمية لـ"**ماكسيم دالني**" وكانت الجمعية المبجلة لم ترغب أن يطول الموقف المؤسف الذي وضع النهاية المحزنة لمرشحين سابقين.. وكانت متمسكة من الانتهاء في أسرع وقت ممكن من كل الضجيج الأحمق الذي لم يكف عن ترديده تلاميذ "**اليفاس دي لانوكس**" وأصدقاء الحسناء السيدة "**بثيني**" وكل أعضاء نادي تحضير الأرواح. أما بالنسبة للساحر الشرير نفسه فقد بدا أنه اختفى من على سطح الأرض. وكل المجهودات التي بذلت للعثور عليه باءت بالفشل. وقد عاد أحسن المحررين الصحفيين الذين انطلقوا في أثره بخفى حنين.. وكان هذا الغياب المطول قد أصبح ببساطة محل قلق؛ لأنه كان من الواضح أن الساحر الشرير كان مختفيا.. ولماذا يختفي ؟ ومن ناحية أخرى.. كان من العدل الاعتراف في الحال أن العقول المشحونة عادة بعد الانفعال والحماس اللذين تليان اللحظات الأولى والثانية أصبحت تلك العقول مشوشة. (لكن أين هي العقول حتى الصحيحة في لحظات لا يصيبها أي تشوش؟)

وهكذا كان أكثر الناس هدوءا.. بعد لقائه المثير والغامض مع "**مارتان لاتوش**" هو السيد "**هيبوليت بانارد**" .. حتى إنه استعاد لونه الوردي ولكن عندما حان اليوم المشهود لاستقبال "**مارتان لاتوش**" كان الفضول لدى البعض ولدى الآخرين.. لدى العقلاء والمجانين قد أفلت عياره.

كان الجمهور الذي انطلق في هجوم على القبة وملأها في البداية ثم بدأ في الصراع للاقتراب من الأرصفة والشوارع الملحقة قاطعا أي حركة مرور وفي قاعة الاجتماع العامة بالداخل كان كل الناس واقفين. رجالا ونساء مضغوطين بحيث إن الدقائق التي سبقت العرض كانت تمر في صمت بعد الضجة العارمة الرهيبة ليصبح ذلك الصمت ثقيلا ورهيبا أكثر فأكثر.

وقد لوحظ أن الحسناء السيدة "**بثيني**" قد تغيبت عن الحضور في العرض الرسمي.

وقد استنتج الناس من ذلك أسوأ التوقعات.. بالتأكيد لو أنه لم يحدث لها شيء فإن هناك الذي يمنعها من الظهور لأن الجمهور كان سيقطعها إربا والذي كان على استعداد لأن تثور ثائرته في الحال.

وفي المكان الذي تحتله تلك السيدة في العرض السابق كان رجل صحيح له بطن برجوازية وقد علق في جيب الساعة سلسلة ذهبية ثقيلة وجميلة. كان واقفا وقد دس أطراف أصابع يديه في جيبي صديريته. وكان وجهه لا يمت بصلة إلى العبقرية، ولكنه لم يكن غير ذكي. وكان جبينه الأصلع بسبب عدم وجود أي شعر صناعي يجعل المرء ينسى أنه قصير وكان مرتديا عوينات إطار عدساتها من الذهب تسقط على أنف عادية.. كان هو السيد "**جاسبار لالويت**" ولم يكن على الإطلاق أحول النظر ولكن لم يكن يسيئه أن يدع من حوله يظنون أن نظره ضعف واستهلك في الأعمال الأدبية على غرار كبار الكتاب.

وكان انفعاله ليس بأقل من انفعال هؤلاء الناس الذين يحيطون به. كان ينظر إلى المكان الذي سيلقي منه "**مارتان لاتوش**" خطابه.

مرت دقيقة ثم دقيقة أخرى.. وسيفتتح الرئيس العرض لو.. لو أن "**مارتان لاتوش**" وصل.. لأنه لم يكن موجودا.. كان كفيلاه ينتظرانه دون جدوى.. وقد وقفا عند الباب في قلق وأسف وهما يديران رأسيهما عشرين مرة هل تراجع في آخر لحظة؟ هل أصابه الخوف؟ هذا ما كان يتساءله السيد "**هيبوليت بانارد**" والذي أمام هذه الفكرة قد تحول لونه إلى الليموني يالها من حياة.. حياة بالنسبة للـ"**السكرتير الدائم**"! وها هو واحد.. السيد **السكرتير الدائم**.. كان يتمنى أن يرى الاحتفال الرسمي وقد انتهى.. بسعادة.

فجأة نهض السيد "**هيبوليت بانارد**" وانتصب وأصاخ السمع نحو الضجيج البعيد.. ضجيج جاء من الخارج.. أخذ يقترب.. إنه ضجيج الحماس دون شك والذي يصحب السيد "**مارتان لاتوش**" بالتأكيد . قال السيد "**هيبوليت بانارد**" بصوت عال:

– إنه هو!

ولكن الضجة تحولت إلى صراخ وهمهمات جمهور أخذت تزداد وتتضخم في شكل تهديدات وكانت هذه من المفروض أن تكون علامة مطمئنة، ولكن أحدا لم يكن يفهم ماذا يقال في الخارج وكانت كل القاعة التي تتنفس مئات الأفواه حتى الآن نفس

الانفعال والإثارة كفت كلها في لحظة واحدة عن التنفس.

بدت وكأن عاطفة أحاطت بالقبة. أخذت أمواج الشعب تضرب الجدران وتحطم الأبواب وتراجع جنود الحراسة حتى داخل الصالة.. ثم بدأ الناس يميزون بين هذا الخضم من البشر نوعا ما من الزمجرة وكأنها تأوهات مفجعة لا نهائية.

أحس السيد "**هيبوليت بانارد**" بأن شعر رأسه يقف.

ثم إذا بما يشبه الحيوان الآدمي يظهر.. كتله مخيفة ووحشية من الجيبات الممزقة وحمالات الجسد "**الكورساج**" منتزعة وكل ذلك يعلوه شعر مسخ أسطوري معروف باسم "**جورجوني**" حيث قبضتاه مضمومتان وينتزعان شفتيه وهو يصرخ بصوت رهيب:

– أيها السيد الدائم.. أيها السيد الدائم! لقد مات.. لقد قتلته لي...!

الفصل السادس

الأغنية التي تقتل

إن كاتب هذا المؤلِّف يتخلى عن إعطاء فكرة عن الفوضى التي لا توصف والتي تلت هذا المشهد المسرحي لقد مات إذن "**مارتان لاتوش**"! مات مثل الآخرين! وهو لم يلق على الإطلاق خطبة الافتتاح تحت القبة، ولكنه في نفس اللحظة الذي كان عليه أن يصل إلى الأكاديمية ليقرأها والمفروض أنه كان سيتولى مثل الآخرين السابقين مقعد مطران "دابيفيل".

لو أن الانفعال العام للحضور حول العجوز "**بابيت**" وهي تصرخ لدرجة الجنون فإن صراخ الجماهير في الخارج ثم في باريس كلها لم يعرف حدودا للعقل. وحتى يمكن تذكر مدى قوته إعادة قراءة الجرائد التي ظهرت في اليوم التالي لذلك الخبر والكارثة الشنيعة. وفي مذكرة لافتتاحية جريدة "**لبيوك**" أعطت فكرة تامة عن حالة النفوس أن المسلسل مستمرا بعد "**جيهان مورتيمر**" وبعد "**ماكسيم دالني**" ها هو "**مارتان لاتوش**" يموت على عتبة الخلود ويظل مقعد مطران "**دابيفيل**" شاغرا. لقد كان نبأ النهاية المفاجئة لثالث الأكاديميين الذين حاولوا الجلوس عليه الذي تآمر عليه "**اليفاس**" الغامض قد انتشر في باريس مساء أمس بسرعة البرق ووحشيته. ونحن لن نعرف ماذا يمكننا أن نفعل في الحقيقة أفضل من أن نستدعي الرعد لمساعدتنا واعطائنا فكرة عما جرى في العاصمة. خلال الساعات التي تلت الحادث غير المعقول. بدا وكأن البعض أصابته صاعقة من السماء وفقدوا الرشد والعقل وقد انتشروا في الشوارع والمقاهي والمسارح والصالونات وهم يكررون تلك الأقوال البلهاء ويتساءلون كيف لا يوجد في مدينة النور وفي عصرنا أشخاص عاقلون يمكن الاستماع إليهم. نحن لن نضيع على الإطلاق وقتنا في تكرار كل تلك الحماقات هنا والتي أخذت تتداول. وهذا المدعو "**اليفاس دي سانتا ايلم دي تايبور دي لانوكس**" من داخل ملجئه الرهيب لابد أنه يشعر بالمتعة. أما بالنسبة لنا فقد انتهينا من الضحك. نحن نطالب بأعلى صوتنا أن تعود إلى جادة الصواب بعد أن شطح بنا الخيال بعدما أحسسناه على أثر موت "**ماكسيم**

دالـنـي". لا.. لا! إن كل هؤلاء الموتى لم تكن ميتتهم طبيعية! قد لا ندهش من الميتة الأولى واستطعنا أن نتردد مع الميتة الثانية ونكون مجرمين إذا لم نشك في الثالثة وعندما نقل إن تلك الميتات لم تكن طبيعية على الإطلاق لا نريد على الإطلاق التلميح إلى بعض القوى الخفية التي خارج القوانين الطبيعية المعروفة قد ضربت ضربتها! نحن نترك هذا اللغو للنساء التافهات من نادي تحضير الأرواح ونقول بلا تردد للسيد المدعي العام الجمهوري: هناك وراء ذلك سفاح اقبض عليه!

كانت الصحافة تقريبا مشلولة وهي تخضع في ذلك للرأي العام والذي يقول إن الأكاديميين الثلاثة قد سُمُّوا ويطالب بتدخل السلطات الحكومية ورغم أن الأطباء الشرعيين قد فحصوا جسد المرحوم واستطاعوا أن يعلنوا "**مارتان لاتوش**" أنه رغم مظهره القوي الشديد، ولكنه مات من الشيخوخة المبكرة والمستهلكة وكان على النيابة العامة أن تفتح التحقيق حتى تهدئ من ثورة الجماهير.

كان من الطبيعي أن يكون أول شخص يستجوب هو العجوز "**بابيت**" التي كانت في اليوم المشؤوم قد نقلت إلى بيتها مغمى عليها بينما الأصدقاء المخلصون نقلوا السيد "**هيبوليت بانارد**" إلى منزله في حالة يرثى لها. وهكذا قامت "**بابيت**" التي لم تكن تفكر في الانتقام بقص حكاية الموت الغريب والفريد للمسكين "**مارتان لاتوش**":

– منذ فترة وسيدي لا يعيش إلا مع خطاب الرثاء والمدح الذي عليه أن يلقيه وكنت أسمعه وهو يتحدث عن مطرانهم "**دابيفيل**" وأيضا عن "**مورتيمر**" وكذلك "**دالني**" وكأنهم آلهة طيبون من السكر. وغالبا ما كان يقف أمام صوانه ذي المرآة مثل ممثل حقيقي. وفي مثل سنه كان منظره يثير الشفقة وأنا لم أخجل من أن أضحك في وجهه لولا أنني كنت محطمة من كلمات الساحر الشرير الذي لم يرد له أن يدخل الأكاديمية. لقد سبق للساحر الشرير أن قتل اثنين. وأنا لم أكن أفكر إلا في شيء واحد وهو أنه سيقتل سيدي مثل الآخرين.. وهذا ما قلته للسيد "**السكرتير الدائم**" في عينيه مباشرة، ولكنه لم ينصت لي وذلك لأنه على ما يبدو كان من الضروري له الحصول على عضو للأكاديمية. وهكذا في كل مرة كنت أجد فيها سيدي يردد ويتدرب على خطبة الرثاء. كنت ألقي بنفسي على ركبتي عند قدميه وأقبل ركبتيه وأبكي كالمجنونة وأتضرع إليه أن يرسل استقالته للسيد الدائم. لقد كانت تساورني هواجس لم تخدعني

أبدا والدليل هو أنني كنت أقابل تقريبا كل الأيام عرافا يعزف على الأرغن (تقصد البيانولا) وأنا من "**روديز**" وهذا يجلب النحس منذ قضية المسكين "**فوالديز**" وهذا أيضا قلته للسيد الدائم ولكني كنتُ كمن ينفخ الهواء في قربة مقطوعة.

لذلك قلت في نفسي يا "**بابيت**" إنك لن تتركي أبدا سيدك! وأنت ستدافعين عنه حتى آخر رمق! وعليه فإنه في يوم إلقاء الرثاء قمت بعمل زينتي وأخذت أراقبه من المطبخ من الباب المفتوح منتظرة أن يمر تحت القبو وقد صممت على مصاحبته إلى أكاديمية التعاسة هذه وإلى نهاية العالم وإلى أي مكان.، انتظرته إذن ولكنه لم يات.. لابد أن ربع ساعة مرت.. وأوشكت أن أفقد صبري عندما فجأة هل تعلمون ماذا سمعت؟ لحن الجريمة! اللحن الذي قتل المسكين "**فوالديز**"!.. نعم.. لقد كان العراف لايزال على مسافة ما حول المنزل وهو يدير مانيوفيلا "البيانولا".. أحسست بعرق بارد.. لم يكن هناك ما يقال سوى أن هذه علامة، لقد علموني سماعيا صلاة الموتى التي لم أكن متاثرة بها.. قلت في نفسي ها هي ساعة الأكاديمية تدق.. ساعة الموت! ثم فتحت النافذة حتى أرى إن كان العراف في الشارع حتى أسكته.. ولكن لم يكن هناك أحد في الشارع.. خرجت من المطبخ لا يوجد أحد تحت القبو! ولا أحد في الفناء واللحن لايزال يعزف.. وكان يأتيني في تلك اللحظة من أعلى.. ربما كان العراف في السلم.. أو الدور الأول.. لا أحد! لا شيء سوى اللحن لذلك المسكن "**فوالديز**" الذي يطاردني باستمرار. وكلما ذهبت إلى مكان سمعته.. فتحت باب المكتبة واعتقدت أن الأغنية وراء الكتب.. وسيدي لم يكن هناك! لابد أنه في مكتبه الصغير الذي لا أدخله أبدا.. تصنت.. كان لحن الجريمة داخل المكتب الصغير.. آه! هل هذا ممكن يا ربي! اقتربت من الباب وأنا أكتم أنفاسي وأمسك بقلبي حتى لا ينفجر صحت يا سيدي! يا سيدي! ولكنه لم يرد علي على الإطلاق وكان اللحن لايزال يدور باستمرار خلف باب حجرة مكتبه الصغيرة. آه.. كم هو أمر محزن! لقد كان لحنا حزينا لدرجة تجعل المرء لا يستطيع التنفس والدموع تطفر من عينيك.. كان لحنا يبدو عليه أنه يُبكي كل من قُتل منذ بداية الخليقة..! أرحت كفيّ على الباب حتى لا أسقط. انفتح الباب وفي نفس اللحظة حدث ما يشبه صريرا يحدثه "**مانيفولا**" (يد إدارة) "البيانولا" عند عزف لحن الجريمة. لقد مزق ذلك قلبي وأذناي..! ثم أوشكت على السقوط داخل حجرة المكتب الصغيرة حيث كنت مذهولة وشاردة..

ولكن ما رأيته جعلني أشب على مخالبي وأنتصب كالتمثال. وسط كومة من الآلات لا أعرف منها لا هذه ولا تلك والتي لابد أنها وصلت إلى هذا المكتب الصغير بتصريح من الشيطان.. رأيت سيدي منحنيا على "بيانولا" العراف. آه.. لقد تعرفت عليه جيدا.. إنها "البيانولا" التي عزفت لحن الجريمة، ولكن العراف لم يكن موجودا. وسيدي لاتزال يده على "البيانولا".. ألقيت بنفسي عليه ولكنه انهار.. سقط من طوله على الباركيه وأحدث صوت ارتطام! لقد كان سيدي المسكين ميتا.. قتل بالأغنية التي تقتل.

كانت هذه الحكاية تقترب مما يحكيه سرا بعض المترددين على النادي.. نادي الروحانيين وقد أحدثت تأثيرا غريبا ولم يرض الرأي العام بالتفسيرات الطبيعية جدا التي قدمها التحقيق حول هذا الحادث الغريب للغاية.

لقد أظهر التحقيق أن العجوز "**مارتان لاتوش**" كان مخبولا ممن يمنعون اللقمة عن أفواههم من أجل زيادة مجموعاتهم سرا. قد حُكي أيضا أنه كان يحرم نفسه من وجبات الغداء التي كان من المفروض أن يتناولها في الخارج حتى يقتصد من ذلك بضعة دراهم ينفقها في سخاء بعد ذلك عند بائعي العاديات القديمة وتجار الآلات الموسيقية القديمة.

هكذا كان واضحا وجليا أن الأرغن الشهير وصل إلى بيته رغم رقابة "بابيت". وأنه في اللحظة الذي حاول فيها تجربة "**المانيوفيلا**" أى يد إدارة "البيانولا" سقط منهكا بسبب نظام الصيام الذي خضع له منذ وقت طويل.

ولكن الناس رفضوا هذا التصور الذي كان بسيطا للغاية لدرجة يصعب معها تصديق أنه حقيقي. وقد بالغت الصحف حتى إن رجال الشرطة انطلقوا في مطاردة العراف.

ولسوء الحظ أن ذلك العراف ظل مستعصيا على البحث والعثور عليه تماما مثل "**اليفاس**" نفسه والذي نتج عنه كما هو متوقع أن بعض المحررين أكدوا أن "**اليفاس**" والعراف ليسا سوى شخص واحد وقاتل واحد.

ولم يجرؤ أحد على الارتفاع إلى مستوى معارضة ذلك الرأي لأنه قبل كل شيء لايزال هناك مصادفة الميتات الثلاث، وإذا كانت كل واحدة في حد ذاتها تبدو طبيعية فقد كان من المؤكد أن الثلاث الميتات مجتمعة قد حدثت لازدهار الرأي السابق ذكره.. وأخيرا طالب الناس بالتشريح. وكانت هذه هي أقصى حل وصلوا إليه ولجأوا إليه. ورغم مساعي وكل نفوذ أكبر الرؤوس في المعهد فقد تمت إعادة فتح النعوش التي لاتزال طازجة لكل من

"**جيهان مورتيمر**" و"**ماكسيم دالني**". ولم يعثر الأطباء الشرعيون على أي آثار للسموم ولم يقدم جسد "**جيهان مورتيمر**" عند فحصه شيئا مميزا. ومع ذلك كشفوا عن وجه "**ماكسيم دالني**" بعض الندوب التي كان من الممكن أن تمر دون ملاحظة في ملابسات أخرى عادية، ويمكن أن تعزى إلى تحلل النسيج الجسدي العادي، ويمكن أن يقال إنها حروق خفيفة يمكن أن تترك آثارا على شكل النجمة على الوجه. وعند فحصها عن قرب شديد أمكن تمييز على وجه "**ماكسيم دالني**" وهو ما أكده اثنان من الأطباء من ثلاثة (لأن الثالث لم يكن يرى شيئا على الإطلاق) ما يشبه ضربة الشمس وبالتأكيد كان الأطباء الشرعيون قد فحصوا أيضا جثة "**مارتان لاتوش**" وقد اكتشفوا آثارا أخرى لنزيف أنفي ضعيف جدا وقد انتشر أيضا في الفم. وباختصار كان في طرف الأنف وملتقى الشفتين من الناحية التي انحنت عليها الجثة خط رفيع من الدم الذي تجمد.

في الحقيقة كان من الممكن أن ينتج هذا النزيف من سقوط الجسم على الباركيه ولكن لما كانت النفوس مشدودة فلم يتأخر الناس في ربط تلك الندوب التي لا اهمية لها وأعطوها أهمية بالغة عبرت عنها وفاة الثلاثة أعضاء بالأكاديمية مما خلق عند الجمهور أسطورة إجرامية.

وقد انطلق الخبراء بكل ذمة وضمير في فحص خطابي التهديد اللذين سلما في وضح النهار أمام الجمهور في الأكاديمية للمرشحين الأولين وقد أعلنوا أن هذين الخطابين ليسا على الإطلاق بخط "**اليفاس دي لانوكس**" ولكن كان هناك بعض الناس يدعون أن الخبراء كثيرا ما يخطئون وهم يؤكدون أن قول الخبراء إن الكتابة حقيقية وغير مزورة إنما يفعلون ذلك حتى لا يخدعوا في صحتها. أي أنهم ينفون صحة الكتابة من باب الحيطة.

أخيرا بقيت آله البيانولا أو ما يسمى بأرغن البدائي فقد طلب خبير آثار الذي يتاجر أحيانا في آلات الكمان من تصميم "**ستراديفاريوس**" الشهير سواء حقيقية أو مزيفة وطلب أن يفحص "البيانولا" وقد سمحوا له بذلك بهدف تهدئة العقول الثائرة التي تتصور أن ذلك الصندوق العتيق الذي يعزف الموسيقى بينما "**مارتان لاتوش**" يتوفى لابد أنه ليس أرغنا عاديا وأن رجلا مثل "**اليفاس**" ربما خبأ الآلة أو الأفضل الطريقة الغامضة لارتكاب الجريمة. فحص تاجر الآثار بكل دقة ومن جميع النواحي بل إنه عزف أيضا لحن الجريمة كما تقول عنه "**بابيت**" وقد سألوه:

– حسنا.. هل هذا أرغن مثل بقية الأراغن؟

رد قائلا:

– لا إنه ليس على الإطلاق أرغنا مثل بقية الأراغن.. إنها إحدى القطع الأكثر غرابة والأقدم التي جاءت إلينا من إيطاليا.

- إذن.. هل اكتشفت شيئا غير عادي؟

– لم أكتشف أي شيء غير عادي.

- هل تعتقد أن هذا الأرغن هو أداة الجريمة؟

رد رجل الآثار بطريقة مبهمة:

– لست أدري.. لم أكن موجودا وقت أحداث الصرير العالي عن يد "**المانيوفيلا**" وقت موسيقى الجريمة.

- إذن أنت تعتقد أن هناك جريمة؟

– ايه.. ايه!

حاولوا دون جدوى سؤال ذلك الرجل ماذا يعني بـ"ايه".. ايه الصادرة عنه فتمسك بتكرار "ايه.. ايه"!

وانتهى ذلك الخبير و"ايه ايه" الصادرة عنه إلى إلقاء البلبلة في نفوس الآخرين. كان هذا الخبير يعمل في مهنة بيع اللوحات ويسكن شارع "**لافيت**" واسمه السيد "**جاسبار لالويت**".

الفصل السابع

سر "توت"

بعد بضعة أيام وفي الثالثة والربع بعد الظهر كان مسافر -في حوالي الرابعة والخمسين من عمره وحيث كانت بطنه قد تكرشت بطريقة لطيفة وزينها بسلسلة ذهبية ثقيلة -قد نزل من عربة الدرجة الثانية من خط "**فارين**"/"**سانت هيلير**" وبعد لف نفسه جيدا بين طيات معطفه المبطن بالفرو- لأننا في وقت الجليد- وقضى بعض الوقت مع الموظف الذي يتلقى التذاكر ثم اتخذ طريق الشارع الرئيسي الكبير والمؤدي إلى "**لامارن**" عابرا الكوبري المؤدي إلى "**شينيفيير**" ثم هبط عن يمينه إلى الشاطئ حيث مر عليه حوالي ربع الساعة ثم بدأ يتأقلم. ترك خلفه آخر الفيلات الخالية من السكان منذ الصيف ثم وجد نفسه في مساحة مستوية تماما ومهجورة . كان تحت قدميه مفرش أبيض ممتد من الجليد الأبيض الحديث وبدا الرجل بكميه اللذين حركهما كجناحي عصفور وكأنه طائر أسود ضخم.

وعن بعد.. بعد بعيد كان سقف حاد محاطا بمجموعة من الأشجار بدت شبه غير مرئية من مسحوق الجليد الذي جعلها بلون السماء، ومع ذلك لمحها مسافرنا الذي أطلق في الحال وسط الجو الحار بعض العبارات التي تدل على تعكر مزاجه. كان يشكو أنه لابد من يسكن هنا مجنون وسط الشتاء. ومع ذلك أسرع الخطوات لكنه لم يستطع السير؛ لأن قدميه كانتا مغطتين بغطاء من الكاوتشوك.

كان صمت كبير.. صمت أبيض يحيط به. كانت الساعة حوالي الرابعة عندما وصل الرجل إلى الأشجار. وكانت الأملاك التي تضمها محاطة بجدران عالية والدخول ممنوع بواسطة بوابة قوية من الحديد. وعلى مدى البصر لا يوجد أي مسكن سوى هذا.

علقت سلسلة حديدية على البوابة خاصة بالجرس، رن الرجل الجرس. وفي الحال اندفع كلبان ضخمان من النوع الخلاسي الأصلي نحو الرجل وهما يزمجران وقد فتحا فكيهما وقد علاهما الزبد. ولولا وجود البوابة بين الرجل وبين الكلاب لحدث مالا تحمد

عـقـبـاه. تراجع الرجل رغـم أنه لـم يكـن هناك مـا يمكـن أن يـخـشـاه من هـذين الكلـبين المفجوعين. صاح صوت حنجري حاد آمرا:

– "**أجاكس**"! "**أشيل**"! إلى العش! حيوانات قذرة!

ثم ظهر عـملاق. لقد كان عملاقا حقيقيا.. شيئا ما مخيفا ووحشيا.. طوله أكثر من مترين ربما مترين ونصف المتر عندما يفرد الجبار جسده، لأنه في تلك اللحظة كان يسير محني الظهر قليلا للأمام وكتفاه الثقيلتان منحنيتان ويبدو أنه تعود على تلك العادة في مشيته. وكانت رأسه مكورة تماما بها شعر فرشاة وشاربه مدلى على الطريقة الصينية ويغطي وجهه. وكان فكه مخيفا مثل فكي الكلبين. أدخل بأصابعه القوية الكلبين داخل تحويطة مسورة ثم أطلق سراحهما.

أحس الزائر بارتجافة خفيفة.. أه.. لا شيء مجرد هزة في كتفيه.. من الواضح أن الجو ليس دافئا وهمهم من بين أسنانه:

– لقـد حـذروني حـقـا من الكلاب عندمـا قـالوا لي: انـتـبـه إلى الكلاب لكنهم لم يحذروني من العملاق.

كـــان الوحـش.. أقصـد العـملاق قد ألصق وجهه المخيف بقضبان البوابة وقال بلكنة غريبة خمن الزائر أنها تعني: "ماذا هناك؟

ورد وهو يحافظ على مسافة محترمة آمنة:

– أريد أن أتحدث مع السيد "**لوستالو**".

كان من الواضح أن الزائر على درجة متوسطة من الذكاء، لأنه فـهـم ما قاله بعد ذلك على أنه:

– ماذا تريد منه؟

– قل له إن الأمر عاجل.. إنه بشأن موضوع الأكاديمية.

ثم مد له بطاقته التي كان ممسكا بها بالقرب من جيبه. أخذ العملاق البطاقة وابتعد وهو يزمجر نحو فناء داخلي لابد أنه يؤدي إلى المدخل الرئيسي للمسكن. وفي الحال عاد "**أجاكس**" و"**أشيل**" إلى استخدام زمجرات التهديد نحو البوابة، ولكنهما هذه المرة لم يعودا ينبحان. كانا يتأملان في صمت الزائر الجديد والدماء في عينيهما وهما يشعران بالأسى على الوجبة التي حرما منها.

تأثر الزائر فأدار وجهه بعيدا أخذ يذرع الأرض ذهابا وإيابا وقال بصوت عالٍ:

– أعرف أنه يجب علي التذرع بالصبر ولكنهم لم يقولوا لي إنه يلزمني الشجاعة أيضا.

نظر إلى الساعة في يده ثم واصل حواره مع نفسه وهو يأمل أن الضجة التي تحدثها كلماته حوله تمنعه من التفكير في الوحوش الثلاثة التي تحرس هذا المقر المنعزل. قال:

– الوقت ليس متأخرا..! وهذا أفضل... ويبدو أنني مضطر للانتظار ساعة أو ساعتين أو ثلاث قبل أن يستقبلني.. لا شك أنه غير مسموح بإزعاجه أثناء قيامه بتجاربه العلمية.. وأحيانا ما ينساك.. كل شيء مسموح للعظيم "**لوستالو**".

هذه العبارات تدعنا نفهم سبب دهشة المسافر وسعادته عندما رأى فجأة ليس العملاق الذي اختفى وإنما "**لوستالو العظيم**" نفسه. كان "**لوستالو**" –شرف وفخر العلم العالمي– ضئيلا بمعنى أن قامته أقل من المتوسط.

ونحن نعرف أنه خارج أعماله هو غير مبال وشارد وأنه يمر بين الرجال كالشبح الخفيف والبعيد متجاهلا كل الأحداث.. وكانت هذه التفاصيل لا يجهلها أحد ولابد دون شك أن تكون معروفة للزائر الذي أدهشه أيما دهشة وصول السيد "**لوستالو**" السريع وبدا من مسلكه أنه ذهل وهو يرى العالم الكبير الضئيل وهو يسرع بكل ما تسمح به ساقاه الصغيرتان ويحييه بهذه الكلمات:

– هل هذا أنت السيد "**جاسبار لالويت**"؟

– نعم يا أستاذ. إنه أنا في خدمتك.

فعل ذلك السيد "**جاسبار لالويت**" هو يضرب الهواء بقبعته المصنوعة من الجوخ الطري (كان الخبير الأثرى يرتدي في المناسبات الكبرى معاطف مبطنة بالفرو وقبعات من الجوخ الطري حتى يتشبه قدر المستطاع بأبطال الأدب المعروفين مثل "**اللورد بايرون**" أو "**الفريد دي فيني**" وابنه "**شاترتون**" (يقصد كتابه) لأنه فوق حبه للأدب لا ينسى أنه موظف بالأكاديمية. ظهر إذن وراء القضبان وجه "**لوستالو العظيم**" الصغير الباسم الوردي. على نفس ارتفاع فكي الكلبين الخلاسيين الرهيبين وبين هذه الفكاك كان مشهدا مثيرا للانتباه. سأل "**لوستالو**" العظيم –الذي كانت عيناه في العادة محتجبتين عندما ينطلق وراء حلم علمي– وإذا بهما في تلك اللحظة تشعان حيوية.

- إذن أنت الذي فحص "**الأورج البري**"؟

– نعم يا سيدي.. إنه أنا.

ثم ضرب الهواء المثلج بقبعته المخملية الطرية مرة ثانية.

- إذن ادخل.. إن الجو بارد بالخارج.

ثم أخذ "**لوستالو**" العظيم يعبث دون أي شرود بل في يقظة تامة في الترابيس التي تغلق البوابة .

ادخل .. كلمة من السهل قولها عندما تكون صديقا لـ"**أجاكس**" و"**أشيل**".. ما إن فتحت البوابة حتى قفز الكلبان مما جعل السيد "**جاسبار لالويت**" يظن أن ساعته الأخيرة حانت ولكن فرقعة من لسان السيد "**لوستالو**" جعلت الكلبين الشرسين يقفان وسط قفزتهما.. وقال:

– لا تخاف من كلبيّ.. أنهما وديعان كالحملين.

في الحقيقة كان "**أجاكس**" و"**أشيل**" يتمرغان الآن في الجليد وهما يلعقان يدي سيدهما. دخل السيد "**جاسبار لالويت**" في بطولة ومنحه السيد "**لوستالو**" شرف أن تقدمه بعد أن أغلق البوابة. وكان الكلبان الآن يتبعانهما والسيد "**لالويت**" لا يجرؤ على الالتفات خلفه خوفا من أي حركة خاطئة تكون بمثابة دعوة للكلبين للقيام بعمل لا إصلاح بعده. صعدا درجات الفناء الأمامي.

كان منزل السيد "**لوستالو**" ريفيا جميلا وكبيرا. وكان متينا ومبنيا بالطوب الأحمر والأحجار المشكلة. وكان محاطا كله في الحديقة والفناء بمبان صغيرة لابد أنها مخصصة للأعمال الهائلة لـ"**لوستالو**" العظيم، أعمال أحدثت ثورة في الكيمياء والطبيعة (الفيزياء) والطب وعادة كل النظريات الخاطئة التي قدمها جهل الرجل فيما نعتقد خطأ أنه العلم. ومن أهم خصائص "**لوستالو**" العظيم أنه كان يعمل بمفرده.

وكانت أخلاقه على ما يبدو غامضة أيضا مشكوكا فيها ولا تتحمل التعاون المشترك. هو يقطن في هذه الدار طوال العام مع خادمه الوحيد وهو العملاق "**توبي**" وهذه حقيقة معروفة تماما. ولا يدهش لها أحد: إن العبقرية تحتاج إلى العزلة.

كان "**جاسبار لالويت**" خلف "**لوستالو**" العظيم قد دخل في ردهة ضيقة بها سلم يؤدي إلى الأدوار العليا. قال "**لوستالو**" العظيم:

– ساصعد بك إلى الصالون حيث نستطيع أن نتحدث أفضل.

ثم صعد الدرج المؤدي إلى الدور الأول و"**لالويت**" بالتأكيد في أعقابه وخلف "**لالويت**" جاء الكلبان. وبعد الطابق الأول بدءا يصعدان للثاني حيث توقفا، لأنه لا يوجد طابق ثالث وكان صالون السيد "**لوستالو**" أسفل السقف، دفع الباب. كانت حجرة عارية تماما من الزينة على الجدران ومزودة ببساطة بمنضدة صغيرة ذات قائمة واحدة وثلاثة مقاعد من القش. دخل الرجلان يتبعهما دائما الكلبان.. قال "**لوستالو**" :

– إنه مرتفع بعض الشيء ولكنه على الأقل بالنسبة للزائرين.. أنت تعلم أن هناك من لا يخجل من إحداث ضجة ويظن أنه في بيته ويسير في الصالون بطوله وعرضه وللأمام والخلف.. إن الزوار عندما أجعلهم ينتظرون في شونة الغلال لا يزعجوني على الطلاق أثناء قيامي بالعمل أسفل في القبو الخاص بي. اجلس إذن يا عزيزي السيد "**لالويت**". لست أدري ما الذي جاء بك، ولكني ساكون سعيدا بشكل خاص أن أتمكن من إسعادك. لقد عرفت من الجرائد التي أحيانا ما أقرأها..

- أنا يا أستاذي العزيز لا أقرأها أبدا ولكن السيدة "**لالويت**" تقرأها من أجلي وهكذا لا أضيع وقتا، وفي نفس الوقت أكون على علم بمجريات الأمور كلها.

ولكنه لم يقل أكثر من ذلك. كان مسلك الأستاذ الكبير "**لوستالو**" حتى الآن ودودا وهذا في حد ذاته كان مقلقا للسيد "**لالويت**". كانت شخصيته ضئيلة الحجم متحركة جدا وفي نفس اللحظة تثبت في مكانها فوق مقعده مثل تمثال من الشمع ومع ذلك رغم ارتعاش رموش عينيه فقد ثبتتا مثل عيني شخص ينصت عن بعد محاولا أن يسمع شيئا ما.

وفي نفس الوقت كان الكلبان اللذان جلس كل منهما على جانب من جانبي "**لوستالو**" العظيم قد فتحا ببطء فكيهما الضخمين وأصدرا لهاثا طويلا مؤثرا وكأنه كما يقولون لهاث الموت.

كان السيد "**لالويت**" متأثرا ومرعوبا أيضا، وإن لم يفقد مع ذلك هدوء أعصابه قد نهض بينما ظل "**لوستالو**" ثابتا على مقعده بلا حركة ينصت باستمرار إلى بعيد.. بعيد وأخيرا وبدا وكأنه يعود من أقصى العالم وبالسرعة الآلية للعبة بالزنبرك ثم ألقى بنفسه على الكلبين وأخذ يضربهما بقبضتيه حتى لم يعد يسمع لهما أي صوت. ثم استدار

نحو "**لالويت**" وجعله يعود إلى الجلوس وتحدث معه هذه المرة بلهجة خشنة وكريهة قدر المستطاع:

– هيا... أسرع.. ليس أمامي وقت أهدره، تحدث! مسالة الأكاديمية مؤسفة فعلا.. تلك الوفيات الثلاث.. هؤلاء الثلاثة السامين ولكني لا أستطيع شيئا.. أنا.. أليس كذلك؟ يجب أن نتعشم ألا يستمر ذلك! لأننا في النهاية راحلون.. راحلون أليس كذلك؟ كما يقول "**بانارد**" الطبيب. إن حساب الاحتمالات لن يكون في الحقيقة كافيا لشرح وفاة رابعة بالتأكيد ولو أن الأكاديمية الفرنسية موجودة من عشرة آلاف عام والتي يشرفني أن أكون جزءا منها وانه حدث شيء مشابه بعد عشرة آلاف عام أخرى.. ولكن.. انتهى الأمر ثلاثة لا بأس بذلك.. يجب في الحقيقة الاطمئنان ولكن تحدث إذن يا سيد "**لالويت**".. أنا منصت لك! إذن لقد فحصت الأرغن البدائي؟ وقلت.. لقد قرأت ذلك في الصحف.. لقد قلت.. ايه.. ايه.. في الحقيقة ماذا تعتقد؟

ثم أضاف في لهجة طفولية رقيقة:

– إنها غريبة جدا هذه القصة.. قصة الأغنية التي تقتل.

تجرأ السيد "**جاسبار لالويت**" بان يقول وهو لم يعد يفكر في الكلبين الخلاسيين اللذين لم يرفعا أنظارهما عنه لحظة:

– أليست غريبة حقا؟ أليست كذلك؟ آه.. حسنا يا أستاذي العزيز.. إنه بسبب ذلك جئت للقائك.. بسبب ذلك وبسبب سر "**توت**" مادمت تقرأ الصحف.

- أوه.. إنني أتصفحها.. إنه ليس عندي السيدة "**لالويت**" مثلك لتقرأها عني وليس عندي وقت لأضيعه مثلك.. هل تتفضل بتصديق ذلك، وكذلك أنا أجهل أيضا في الحقيقة ما هو سر "**توت**".

- آه.. إنه ليس سري للأسف.. ويبدو أنني كنت سأصبح سيد الكون، ولكني لست في وضع يسمح لي بان أقول لك مما يتكون.

- عفوا يا سيدي عفوا! دعنا لا نشرد هل هناك صلة ما بين الأغنية التي تقتل وسر "**توت**"؟

– دون شك يا أستاذي العزيز وإلا ما حدثتك عنه.

- حسنا ما الذي تريد أن تصل إليه؟ وما هو غرضك من الحضور إلى هنا؟

– أن أسألك كأكبر عالم عم إذا كان هناك أحد ممن يعرفون سر "**توت**" يستطيع به أن يقتل أحدا بطرق غير معروفة للناس. إن ما أريد أن أعرفه أنا "**جاسبار لالويت**" والذي استدعت الظروف اعتباري خبيرا أن أقول كلمتي حول هذه القصة المفجعة ولهذا فقط أتيت لمقابلتك: هل يمكن أن يكون "**مارتان لاتوش**" قد اغتيل؟ وهل من الممكن أن يكون "**ماكسيم دالني**" قد قتل؟ وهل في الإمكان أن "**جيهان مورتيمر**" قد اغتيل؟

لم ينته السيد "**جاسبار لالويت**" من نطق تلك الافتراضات الثلاثة حتى أعاد "**أجاكس**" و"**أشيل**" فتح فكيهما حتى أفلت منهما لهاث الموت أكثر فجيعة مما سبق! وفي المقابل كان "**لوستالو**" الكبير الضئيل وقد عادت عيناه إلى الثبوت مثل عيني شخص ينصت عن بعد إذ كان يسمع شيئا. كان "**لوستالو**" الكبير الضئيل شاحبا ولكنه هذه المرة لم يسكت خلاسييه وولولتهما ولهاثهما الكلابي. وظن السيد "**جاسبار لالويت**" أنه سمع لهاثا أكثر فظاعة وإرهابا وكأنه لهاث بشري.

ولكن ذلك لابد أنه كان وهما لأن الكلبين لم يسكتا في النهاية وما يمكن أن يكون لهاثا بشريا كف أيضا في نفس الوقت.

وعندئذ قال السيد "**لوستالو**" وقد عادت عيناه إلى الحركة كجناحي الفراشة وعادت إليهما حيويتهما وبعد أن أصدر صوتا خشنا:

– بالتأكيد لا لم يقتلوا.. هذا غير ممكن أليس كذلك؟ هذا لم يكن ممكنا! وليس هناك سر "**توت**" موجود.

ومع ذلك حك السيد "**لوستالو**" طرف أنفه وقال:

– هم.. هم..!

كانت عيناه قد عادتا إلى شرودهما وتباعدهما كان السيد "**لالويت**" لايزال يتكلم، ولكنه كان من الواضح الجلي أن السيد "**لوستالو**" لم يكن ينصت إليه وحتى لم يكن يراه، ناسيا حتى إنه موجود.

وقد نسي السيد "**لوستالو**" تماما أن السيد "**لالويت**" موجود ورحل عن الصالون في هدوء دون كلمة وداع ولا أدب موجهة إلى ضيفه ثم أغلق الباب تاركا السيد "**جاسبار لالويت**" مع الخلاسيين.

اتجه السيد "**لالويت**" نحو الباب ولكنه وجد بينه وبين الباب "**أجاكس**" و"**أشيل**"

يعارضان دون أي كلام أن يتجه إلى ذلك الاتجاه.

كان التعس إذن مرعوبا ولم يفهم شيئا من الموقف فصاح: ثم سكت لأن صوته كان له ميزة الإثارة على ما يبدو للكلبين حيث أظهرا أنيابا قاطعة رهيبة. تراجع وذهب إلى النافذة وفتحها وقال في نفسه.. لو رأيت العملاق يمر سألوح له لأنه بالتأكيد أن "**لوستالو**" الكبير قد نسيني هنا مع كلبيه.

ولكنه لم يشاهد أحدا يمر. وتحته رأى صحراء حقيقية مغطاة بالجليد ولا أحد في الفناء ولا في الريف.. والليل قادم بسرعة كعادته في هذا الموسم.

استدار وقد لمع جبينه من العرق رغم البرد وهو يتعرض لآلاف المخاوف الحزينة. كان الكلبان قد أغلقا فكوكهما الأربعة واتته فكرة جريئة أن يربت عليهما مدللا. ولكن الفكوك فتحت ثانية وفجأة وفي الوقت الذي لم تهدر الفكوك صارخة إذا بصياح بشري. رهيب ملأ الفراغ مما جعلت فرائصه تتجمد أكثر مما هي عليه أصلا. ألقى بنفسه نحو النافذة ورأى الفضاء.. فضاء مهجورا أبيض تماما اهتز بتلك الصرخة المجنونة، ولكنه لم يعد في أذنيه يسمع الآن سوى اللهاث الجبار للخلاسيين بعد أن عادا إليه ثم ترك السيد "**جاسبار لالويت**" نفسه يسقط على مقعد ذي مساند بلا حول ولا قوة ويداه على أذنيه.. وعندئذ لم يعد يسمع شيئا وحتى لا يرى فكوك الكلبين أغمض عينيه.

أعاد فتحهما على ضجة باب يدفع. كان السيد "**لوستالو**" وسكت الكلبان مرة أخرى ولم يعد هناك ما هو ساكن وصامت مثل هذا البيت.

اعتذر السيد "**لوستالو**" العظيم في رقة:

– إنني أستميحك عذرا لأنني تركتك لحظة. أنت تعلم ماذا يحدث عندما أقوم بتجربة.

ثم قال وهو يتنحنح بطريقة غريبة:

– ولكنك لم تكن بمفردك.. "**أجاكس**" و"**أشيل**" قد ظلا في صحبتك على ما أرى.. أوه! إنهما كلبان بيتيان أليفان حقا.

قال السيد "**لالويت**" بصوت متغير قليلا الذي تمالك نفسه بعد انفعاله عندما وجد السيد "**لوستالو**" ودودا وطبيعيا.

- سيدي الأستاذ! لقد سمعت من قليل صرخة رهيبة.

رد السيد "**لوستالو**" في دهشة:

– ولكن هذا غير ممكن! هنا؟

– هنا.

- ولكن لا يوجد هنا سوى صديقي العجوز "**توبي**" وأنا تركته في التو.

- إذن لابد أن ذلك كان في الجوار المحيطة.

- بلا شك.. اللعنة! ربما بعض صيادي الأحراش يتشاجرون مع الحارس.. ولكنك في الحقيقة تبدو لي منفعلا جدا. هيا.. يا سيد "**لالويت**"! إن الأمر ليس جادا. هيا تمالك نفسك وانتظر فإنني سأغلق النافذة.. إننا هنا في بيتنا والآن لنتكلم كرجال عقلاء. ألست مجنونا بعض الشيء بحضورك لتسألني أنا عما أظنه في سر "**توت**" والأغنية التي تقتل؟ إن موضوع الأكاديمية غير عادي ولكن يجب الانتباه حتى لا يصبح أكثر غرابة بتلك الحماقات حول "**اليفاسهم وتايبورهم**" وحول لست أدري ماذا كما قال ذلك السيد "**بانارد**" الممتاز وفيما يبدو أن ذلك المسكين "**بانارد**" مريض؟

– يا سيدي إنه السيد "**ريمون دي لابراسبير**" هو الذي نصحني بالقيام بزيارتك.

- "**ريمون دي لابراسبير**" مجنون. صديق لـ"**بشيني**".. ممارس روحانيات.. إنه يجعل الموائد تدور ويقولون عنه عالم! لابد أنه يعرف ما هو سر "**توت**" ما الذي أرسلك لتفعله عندي؟

– حسنا.. هذا هو. لقد ذهبت إلى بيتي؛ لأنهم كانوا يتحدثون كثيرا منذ أيام عن سر "**توت**" دون أن يعرفوا ما هو. ويجب أن أقول لك إن "**اليفاس**" الذي تعرض للسخرية في البداية أصبح يبدو الآن في عيون كل الناس مهما وأصبح يتلقى العروض المسبقة في منزله ومعمله في شارع "**هيشيت**" وأنهم اكتشفوا هناك حول أسرار الإنسانية تركيبات ليست على الإطلاق على هذه الدرجة من عدم الإزعاج لدرجة إمكانية تصديقها ،لأنه لو اختلطت بها الكيمياء والفيزياء على ما يبدو يمكن عن بعد جعل الناس يموتون.

عارض "**لوستالو**" العظيم:

– في هذا النوع يلزم بودرة المدافع!

– نعم ولكنها معروفة.. بينما يوجد تركيبة على ما يبدو ليست معروفة عند كل

الناس وهي أخطرها جميعا.. وهي ما تسمى سر "**توت**" وعلى ما يبدو أنه على جميع جدران معمل شارع "**دي لاهيشت**" فإن تلك التركيبة مكررة.. وقد سأل القضاة بناء على رأي الجماهير والصحفيين وأنا نفسي، سألوا السيد "**ريمون دي لابراسبير**" وهو واحد من ألمع علمائنا في المصريات ما هو سر "**توت**" وقد أجاب بالنص: "ستموت إذا أنا أردت عن طريق الأنف والعينين والفم والأذنين لأنني أنا سيد الهواء والنور والصوت".

- إنه مخلوق رائع هذا العجوز "**توت**".

هز "**لوستالو**" العظيم راسه شبه جاد وشبه مازح:

– وإذا صدقنا السيد "**دي لابراسبير**" يجب أن نرى فيه مخترع السحر. إنه "**هيرمس**" الإغريقي على ما يبدو وأكبر منه تسع مرات. لقد عثر على تركيبته معلقة في سقارة على جدران حجرات الموتى لأهرامات ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة وهي أقدم النصوص التي نعرفها وتلك التركيبة الجبارة محاطة بتركيبات أخرى تمثل عضات الحيات ولدغات العقارب وبصفة عامة هجوم الحيوانات الساحرة.

أعلن "**لوستالو**" العظيم:

– يا سيدي العزيز "**لالويت**" إنك تتحدث وكأنك تقرأ من كتاب مفتوح. ويسعدني أن أسمعك.

- إنني يا أستاذي العزيز موهوب بذاكرة ممتازة ولكني لا أستفيد منها. أنا أجهل الرجال وآتي بكل تواضع لأطلب منك ما هو رأيك في سر "**توت**" والسيد "**دي لابراسبير**" لا يخفي أن الخطاب الخاص بالسر الشهير معروف في القبر تليه علامات غامضة والتي تعطي القوة التي تحدث عنها "**توت**" والذي حل شفرتها "**اليفاس دي لانوكس**" والذي أكده عدة مرات وقد عثر في أوراقه في معمل شارع "**دي لاهيشت**" على نسخة خطية معنونة من قوى من الماضي إلى قوى من المستقبل وهي تجعل الناس يميلون إلى الاعتقاد بأنه في الحقيقة قد اخترق الفكر المشكوك فيه للعلماء في ذلك الوقت. وأنت تعلم بالتأكيد يا أستاذي العزيز أن كهنة قدماء المصريين قد اكتشفوا الكهرباء في البداية.

تنحنح "**لوستالو**" وتكور مثل القرد ووضع أطراف قدميه بين أصابع يديه:

– أنت مثير للإعجاب يا سيدي "**لالويت**" العزيز.. ولكن استمر.. أنت تسليني

وتمتعني.

أوشك "**جاسبار لالويت**" أن يختنق من هذه المجاملة السوقية، لكنه عندما فكر في أن رجال العبقرية لا يستطيعون أن يشعروا بالإثارة في إطار الآداب المصطنعة للناس العاديين واستمر في الحديث وكأنه لم يلاحظ شيئا:

– إن السيد "**دي لابراسبير**" مثير للإعجاب في هذا المجال. بل إنه أضاف: إنهم يستطيعون أيضا أن يكونوا على علم بالقوى التي لا تستهلك وإلى تحويل المادة إلى روح، وإننا ربما استطعنا أن نكتشف أنهم استطاعوا قياس تلك القوى وهو ما يتيح لهم أشياء كثيرة.

تــرك "**لوســتــالو**" العظيم قدميه الصغيرتين وتمطى مثل القوس وعادت إليه روح الفكاهة أمام نظر "**لالويت**" وهو ينطق ويحك طرف أنفه:

– لقد قلتها أيها الماكر!

ولم يطرف للسيد "**لالويت**" رمش وقال:

– كل هذا يبدو لك مثيرا للسخرية يا أستاذي العزيز.

- أتقول هذا يا "**شارلز**"!

رد السيد "**لالويت**" في الحال وهو يبتسم في ود إلى الأستاذ العزيز:

– لست غاضبا على الإطلاق من أخذك الأمور بهذه الطريقة. تصور أن الأمر انتهى بي إلى التأثير بذلك كما فعلت مع أشياء أخرى. لأنك تعلم ماذا حدث. ما إن نعرف نص سر "**توت**" الذي يقول ستموت إذا أنا رغبت من أنفك وعينيك وفمك وأذنيك لأنني سيد الهواء والنور والصوت حتى وُجد رجال يفسرون كل شيء.

- أه.. أحقا؟

– بفكرة أنه مع سر "**توت**" فإن "**اليفاس**" أصبح سيد الصوت وتذكروا في الحال كلمات "**بابيت**" حول الأغنية التي تقتل! وقالوا إن "**اليفاس**" أو العراف قدموا شيئا في آلة الأرغن.. نوعا من القوى التي تقتل وهي تغني والتي قد تكون محبوسة في صندوق انتزعوه من الأرغن في الحال. ولهذا السبب طلبت زيارة لفحص الأرغن.

سأل عالم العلماء بلهجة شبه متوحشة أثارت سخط السيد "**لالويت**" رغم خجله:

–إذن هذه قضية تهمك جدا يا سيد "**لالويت**"؟

رد بطريقة يشوبها الحرج والارتباك:

– أنا لا أهتم بها أكثر من أي قضايا أخرى؟ أنت تعلم أنني أنا أيضا قد بعت آلات أرغن وقد أردت أن أرى..

– وما الذي أردت أن تراه؟

– اسمع يا أستاذي أنا لم أر أي شيء في الأرغن ولكني اكتشفت بجانب الأرغن شيئا ما، شيئا هذا هو..

وأخرج السيد "**لالويت**" من صديريته أنبوبة طويلة ضيقة تنتهي بقمع وتشبه تقريبا فم آلة نفخ. أخذ "**لوستالو**" العظيم الأنبوبة وفحصها ثم أعادها وقال:

– إنه نوع من الفُم الخاص بالبوق الروماني.

– أنا أظن ذلك أيضا. ومع ذلك تصور يا أستاذي العزيز أن هذا الفُمْ يركب بالضبط على ثقب في البيانولا بطريقة رائعة وأنا لم يسبق لي أن شاهدت مثل هذا الفُم في بيانولا. واستميحك عذرا. ولكني مطارد بكل تلك الحماقات التي سمعتها فقد قلت في نفسي: "ربما هذا هو الفُم المخصص لتوجيه اللحن الذي يقتل وجهة معينة".

– نعم.. حسنا يا عزيزي تاجر الآثار "**دي لالويت**" لقد اكتفيت من هذا.. أنت أحمق مثل الآخرين وماذا ستفعل بهذا الفُم؟

أعلن "**دي لالويت**" هو يمسح وجهه:

– يا أستاذي العزيز.. لن أفعل به شيئا على الإطلاق ولن أشغل بالي بعد الآن بهذا الأرغن لو أن رجلا مثلك يعلنني بسر "**توت**".

– إنه سر الحمقى والبلهاء! وداعا يا سيد "**لالويت**" وداعا! "**أشيل**".. "**أجاكس**"! دعا السيد "**لالويت**" يرحل!

ولكن السيد "**لالويت**" الذي نال أخيرا حرية الخروج لم ينتهز الفرصة. وقال:

– هناك كلمة أخرى يا أستاذي العزيز بعدها ستخلص ضميري لدرجة لا تستطيع أن تتصورها، ولكني أرجوك أن تسمح لي بأن أشرح ذلك فيما بعد.

سأل "**لوستالو**" في الحال وقد أصاخ السمع ووقف على العتبة.

– وما هو؟

– هذا هو.. هؤلاء الذين قالوا إن "**اليفاس**" استطاع اغتيال "**مارتان لاتوش**" بالأغنية

التي تقتل ادعوا باستمرار أنه حسب سر "**توت**" الذي يتحدث عن القوة المميتة للنور. إن "**ماكسيم دالني**" قد قتل بضربات الضوء.

– بضربات الضوء؟ من الواضح أنه لابد من الحجر عليك وحبسك! ولماذا ضربات الضوء؟

– نعم.. ربما أرسلوها إلى عينيه بمساعدة أحد الأجهزة الخاصة.. أشعة ربما كانت مسممة مسبقا ومنها توفي. ومما يؤيد ما يقولونه هناك من يؤكدون أن شعاعا جاء ليصدم "**ماكسيم دالني**" في الوقت الذي كان يقرأ فيه خطبته، وأن السيد "**دالني**" أتى قبل أن يسقط مصعوقا بحركة الشخص الذي يريد أن يطرد عن وجهه ذبابة أو أنه تعرض إلى حزمة من الضوء ضايقته.

– آه... هذا مرفوض.. حزمة من الضوء!

– أخيرا فإن سر "**توت**" يسمح أيضا بالقتل بالفم وبالأنف.. هؤلاء المجانين.. لأنني أفهم جيدا أنني لا أستطيع أن أعطيهم اسما غير المجانين. إنهم يا أستاذي العزيز اختاروا لـ"**جيهان مورتيمر**" الموت بالأنف!

أعلن "**لوستالو**" العظيم:

– إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا أفضل من ذلك يا عزيزي بشاعر "العطور المأساوية".

– نعم أحيانا ما تكون العطور أكثر مأساوية مما يظن.

– "**هورتنس**"! زهرة الأوركانسيا!

– اضحك يا أستاذي العزيز! اضحك. ولكني أريد أن أضحك حتى النهاية. إن هؤلاء السادة يدعون أن الخطاب الأول الذي نقل إلى "**جيهان مورتيمر**" وتسجيله الرهيب عن الزهور كانت كتاباته أصلية. في الحقيقة كتابة "**اليفاس**" بينما الثاني لم يكن سوى مرسل من مازح ثقيل. وفي خطابه وضع "**اليفاس**" سما غير مرئي حمل ذلك السم الذي كان يستخدمه "**لوكويس بورجيا**" كما سمعت.

– العمى في عينيك!

كان من الممكن أن يظن المرء أن الطريقة المحتقرة التي اعتقد "**لوستالو**" العظيم أنه يجب عليه أن يرد بها على أسئلة جادة للغاية للسيد "**جاسبار لالويت**" ستنتهي بأن يفقد صبره وأدبه ذلك الخبير تاجر الآثار واللوحات، ولكن العكس هو ما حدث تماما بل

حدث أنه لم يكن يتمالك نفسه من الفرح. أمسك السيد "**لالويت**" بالسيد "**لوستالو**" بين ذراعيه وغمره بالقبلات. كان يقبله أثناء قيام العالم الضخم الضئيل. يحاول التخلص بكل ما لدى ساقيه الصغيرتين من قوة وصاح:

– دعني! دعني وإلا جعلت الكلاب تلتهمك ولكن للصدفة السعيدة لم يكن الكلبان موجودين وذلك من حسن طالع السيد "**لالويت**" الذي بدا في قمة السعادة والمرح وهو يصيح:

– آه.. يا للخلاص والارتياح.. كم أنت ممتاز! كم أنت عظيم! كم أنت عبقري!

قال "**لوستالو**" أخيرا وهو يخلص نفسه أخيرا وقد أصابه غضب جامح ولا يعرف ما الذي حدث له:

– أنت مجنون!

– لا.. إنهم هم المجانين.. كرره علي يا أستاذي العزيز وبعدها سأرحل.

– من الواضح الجلي أنهم كلهم مجانين تماما.

– آه.. آه.. مجانين تماما! لقد استوعبت ذلك.

كرر العالم:

– مجانين تماما!

وكرر الاثنان معا "مجانين تماما.. مجانين تماما!" ثم ضحكا وكأنهما أحسن صديقين في العالم.

أخيرا استأذن السيد "**لالويت**" في الانصراف وصحبه السيد "**لوستالو**" بكل لطف وكرم حتى الفناء، هناك أدرك أن الليل تقدم فقال للسيد "**لالويت**":

– انتظر.. سأصحبك مسافة من الطريق بالمصباح لأنني لا أريد أن تسقط في الأحراش.

ثم عاد في الحال ومعه مصباح صغير مضاء رفعه إلى مستوى ركبتيه القصيرتين. وقال:

– هيا بنا!

ثم فتح بنفسه البوابة بعناية وأغلقها. لم يشاهد العملاق أبدا فقال السيد "**لالويت**" في نفسه: من الذي قال إن هذا الرجل شارد؟ إنه يفكر في كل شيء.

سارا هكذا لمدة عشر دقائق.. ووصلا إلى حافة الأرض الصلصالية حيث وجدا بها

طريقا مريحا رغم أن السيد "**لالويت**" كان يكره نوعا معينا من التركيز في الحديث إلا أنه اعتقد أن عليه أن يقول إذن قبل أن يترك "**لوستالو**" العظيم بعد أن اعتذر مقدما. أن يعتذر مرة ثانية عن الإزعاج الذي سببه.

– من المؤكد يا سيدي العزيز أن "**باريسنا**" الكبرى قد انحدرت للحضيض. ها هي ثلاث وفيات ليس هناك ما هو أكثر منها طبيعية. وبدلا من شرح أسبابها كما تفعل وأفعل أنا على ضوء العقل والرشاد فإن "**باريس**" تفضل الاعتقاد في شعوذات تنتحل قوى تخجل الآلهة.

ختم "**لوستالو**" العظيم كلام "**لالويت**" قائلا:

– العمى في عيونهم!

ثم استدار هكذا بلا سابق إنذار هو ومصباحه تاركا السيد "**جاسبار لالويت**" مذهولا تماما على الحافة وسط الليل البهيم.

وعن بعد كان ضوء المصباح يتراقص ثم اختفى ذلك الضوء وفجأة كان الطنين المفزع وصحبة الموت الكبرى واللهاث الآدمي يتردد عن بعد. تبعه بعد ذلك في الحال النباح اليائس المستمر للخلاسيين.

كان السيد "**جاسبار لالويت**" الذي وقف في البداية وهو يلهث رعبا أمام تلك الصرخة المفزعة اعتقد أنه سمع عن قرب منه عويل الحيوانات.. فهرب.

الفصل الثامن

في فرنسا يتلاشى الخلود

التسعة والثلاثون –لقد لعب القدر لعبة وأصبح الناس يقولون الآن التسعة والثلاثين لم يبد هناك سوى تسعة وثلاثين أكاديميا! لم يتقدم أحد ليكون العضو الأربعين منذ الأحداث الأخيرة. مرت شهور طويلة أثناءها لم يتقدم أي ترشيحات لاحتلال المقعد المسكون.. لقد تعرض شرف الأكاديمية للتلوث.. وعندما كانت الجمعية الموقرة بالصدفة تجد نفسها في حاجة إلى تعيين بعض الزملاء الذين كانوا حسب العادة عليهم حضور احتفال عام وخاصة جنائزيا لرفع سمعتها وتلميعها عن طريق حضورهم بالزي الرسمي.. كان ذلك مأساة لقد كان الزمن حزينا. والخلود حقا مريضا.

وأصبح الناس يتحدثون عنها وهم يبتسمون؛ لأن كل شيء ينتهي هكذا في فرنسا بابتسامة حتى عندما تقتل الأغاني.

لقد أغلق التحقيق بسرعة واعتبرت القضية منتهية. ويبدو أنه لم يعد يبقى من تلك المغامرة الرهيبة التي لم ير فيها الرأي العام المجنون سوى جرائم وسوى ذكرى مقعد يحمل النحس. وفيها ليس هناك شخص واحد شجاع وجسور يمكن الذهاب للجلوس عليه. وهو أيضا أمر مثير للضحك. وهكذا إذن كل الرعب لهذه المأساة الثلاثية غير المفهومة تنمحي أمام ابتسامة: التسعة والثلاثين لقد نقص الخلود واحدا.. لقد نقص مجمع الخالدين واحدا من أعضائه. وهذا في حد ذاته كان كافيا ليجعله محل سخرية.. لدرجة أن اللهفة التي كانت فيما مضى على أن يصبح المرء جزءا من الجمعية التي تضم دون منازع أنبل العقول في العصر أصبحت تلك اللهفة متضائلة.

نعم حتى بالنسبة للمقاعد الأخرى –لأنه أحيانا ما توجد بعض المقاعد تحتاج إلى توزيعها فإن الترشيحات كانت تتم بشد الأذن وشق النفس. اللعنة! وكان هذا لا يمنع من التهكم قليلا عندما يقدم المقعد لشخص غير مقعد مطران "**دابيفيل**".

كانوا يقومون بزياراتهم وهم يشعرون بالعار. وكان من المعروف أنهم مرشحون في

آخر دقيقة وهو أمر مؤلم جدا عندما تراهم عند إلقاء خطبة مديح أيا كانت في حين أن هؤلاء المرشحين لمقعد مطران "**دابيفيل**" : "**جيهان مورتيمر**" و"**ماكسيم دالني**" و"**مارتان لاتوش**" كانوا لايزالون في الأذهان.

لقد كانوا يعتبرون جبناء ويمكن توقع اللحظة التي فيها يصبح فيها التطوع للخلود أمرا مستحيلا. وحتى تأتي تلك اللحظة لم يعد هناك سوى تسعة وثلاثين.. تسعة وثلاثين لو أن الخلود له شعر -ولكنه عادة أصلع- لننزع شعر رأسه. ومع ذلك في الحقيقة فقد تبقى من شعر الخلود خصلة هنا وخصلة هناك مثل "**هيبوليت بانارد**" ولكنها خصلة مثيرة للشفقة حتى إن اليأس نفسه يشفق عليها.. إنها خصلة شعر تبكي كما يقولون وهي معلقة على الجبين.. دمعة شعر.

لقد تغير السيد "**هيبوليت بانارد**" حقا! لم يكن معروفا عنه حتى ذلك الوقت سوى لونين الوردي والليموني ولكنه تبنى لونا ثالثا. لونا ثالثا غير محدد، لأنه كان من النوع الذي لا يعتبر لونا على الإطلاق.. إنه هذا النوع من اللون السلبي إذا جاز لي أن أتجرأ وأقول إن القدماء كانوا يضعونه على حدود آلهة الجحيم.

ويبدو أن السيد "**السكرتير الدائم**" نفسه هو أيضا طالما كانت سحنته شنعاء وكأنه صعد من الجحيم الذي اعتقد في قرارة ضميره أنه سيهبط إليه.

يجهل بعد موت "**مارتان لاتوش**" ألزمه تانيب الضمير الذي عذبه الفراش وكانوا يسمعونه في هذيانه يتهم نفسه بالنهاية الحزينة لرجل الألحان التعس. طلب الصفح من "**بابيت**" ولم يبق سوى انتهاء الدراسة وتأكيد الطب وزيارة الزملاء ليكفي لعودته إلى العقل. وعندما استعاد استخدامه لعقله فهم أن الأكاديمية لا يمكن أن تستغني عن خدماته. نهض في شجاعة واستأنف مهمته الصعبة ولكن لم يمض وقت طويل حتى أدرك أن الخلود لم يعد بالنسبة له.. له وجود. وكان عندما يذهب إلى المعهد كان مضطرا لاتخاذ طرق ملتوية خفية حتى لا يشاهد ويصبح في الحال محلا للضحك والسخرية. مرت الجلسة حول "**القاموس**" في شكاوى لا جدوى من ورائها وزفرات وتنهيدات غير مفيدة وكل ذلك لم يكن من أجل الإسراع بالانتهاء من ذلك المؤلف المرموق. عندما فجأة في يوم من الأيام فيه ظل أعضاء الجمعية صامتين منهارين في قاعتهم الخاصة، كان في القاعة المجاورة ضجة كبرى لأبواب تفتح وتغلق وخطوات

متعجلة والظهور المجنون لـ"**هيبوليت بانارد**" الذي استعاد فجأة لونه الوردي. عند رؤيته على هذه الحالة وقف الجميع في ضجة وهرج ومرج ضخم.

– ما الذي جرى له؟

كان السيد "**السكرتير الدائم**" منفعلا جدا حتى إنه لم يعد يستطيع الكلام. كان يلوح بقطعة من الورق ولكن صوتا واحدا لم يستطع الخروج من فمه اللاهث.. من المؤكد أن متسابق الماراثون ما كان سيبدو أكثر إرهاقا وهو يحمل إلى أثينا نبأ هزيمة الفرس ومصير المدينة مثلما كانت حالة السيد "**السكرتير الدائم**". ولو مات ذلك الماراثوني فإن ذلك كان؛ لأنه لم يكن خالدا مثل "**هيبوليت بانارد**".

أجلسوا السيد "**هيبوليت بانارد**" ونزعوا الورقة من بين يديه. التي كانت تقول إن لي الشرف في أن أقدم طلب ترشيحي لشغل المقعد الذي خلا بموت صاحب النيافة مطران "**دابيفيل**" و"**جيهان مورتيمر**" و"**ماكسيم دالني**" و"**مارتان لاتوش**".

"**جول لوي جاسبار لالويت**"

أديب

وموظف بالأكاديمية

٣٢ مكرر شارع "**لافيت**".. باريس

الفصل التاسع

في فرنسا يوجد دائما مواطن شجاع وعاقل يشعر الجماهير الغبية بمثاليته

أخذ الجميع ببساطة يتبادلون القبلات والأحضان. وقد عرف عن ذكرى هذا الحماس السعيد الذي خص الأكاديمية تحت اسم "**قبلة لالويت**" وكان هؤلاء الموجودون هناك يندمون؛ لأن عددهم ليس بالكبير الذي يسمح بالتمتع بالخبر بطريقة كاملة أكثر.. وكلما زاد عدد المجانين زاد الضحك. لقد كانوا يضحكون.

لقد كانوا سبعة وقد ضحكوا وتبادلوا الأحضان، ولأنه لم يكن هناك سوى سبعة؛ لأنه لم يكن يحضر إلى الاجتماعات سوى أقل عدد ممكن لأنها لم تكن اجتماعات مرحة وبهيجة. ولكن هذا الاجتماع كان تاريخيا. قرر السبعة جميعهم القيام بزيارة إلى السيد "**جول لوي جاسبار لالويت**" في الحال. لقد أرادوا أن يتعرفوا عليه دون تأخير وبطريقة خارجة عن المألوف وأن يربطوه بصفة نهائية ودائمة بالمصير الأكاديمي، إنهم يريدون أن يضموه.

انتظروا أن يعود السيد "**هيبوليت بانارد**" إلى رباطة جأشه قليلا ثم هبط الجميع إلى البواب الذي أرسلوه لإحضار عربتين لقد فكروا جديا في الذهاب إلى شارع "**لافيت**" على الأقدام، إنه سيفيدهم جدا أن يستنشقوا الهواء الصحو؛ لأنهم لم يتنفسوا من وقت طويل هواء صحيا. ولكنهم خشوا ألا يتعرف الناس على الأرصفة على السيد المدير والسيد المستشار –اللذين لم يعودا نفس هذين اللذين عرفناهما؛ لأن المكتب كان دائما ما يتغير كل ثلاثة أشهر– والسيد "**السكرتير الدائم**". وألا يتعرضوا إلى بعض التصرفات المهنية التي ستعاني منها سمعة الأكاديمية وكرامتها. ثم باختصار كانوا في عجلة من أمرهم لمعرفة زميلهم الجديد ويمكن الظن أنه لم يكن هناك من حديث سواه في العربتين. ففي الأولى كانوا يقولون من هو إذن هذا السيد "**لالويت**" رجل الأدب؟ إن ذلك الاسم معروف لي ويبدو لي أنه نشر شيئا ما مؤخرا. لقد كان اسمه في الجرائد وفي

العربة الثانية كانوا يقولون هل لاحظتم أنه اتبع توقيعه بهذه العبارة الغريبة "موظف الأكاديمية"؟ إنه رجل فكر أراد منا أن نفهم أنه ينتمي إلينا من قبل.

وهكذا أدلى كل واحد بكلمته.. وحدث أن أصبحت الحياة جميلة. فقط السيد "**هيبوليت بانارد**" هو الوحيد الذي لم يقل شيئا. ذلك لأن فرحته الخاصة كانت ثمينة جدا حتى يهدرها بلا طائل في ثرثرة لا قيمة لها. وهو لم يتساءل لحظة من هو هذا السيد "**لالويت**" ما الذي نشره؟ لقد كان كل ذلك عنده سيان ولا أهمية له. إن السيد "**لالويت**" هو "**لالويت**" أي الرابع وقد منحه دون نقاش صفة التمتع بالعبقرية.

وهكذا وصلوا إلى شارع "**لافيت**" وابتعدت السيارتان. وأدرك السيد "**هيبوليت بانارد**" أنهم موجودون في مواجهة المنزل رقم ٣٢ مكرر مباشرة. ثم تبع زملاءه وتوغل في تصميم تحت الباكية. لقد كانوا في حي سكني جميل المظهر. وعلى منصته سألت الحارسة البوابة أين يريد السادة أن يذهبوا. فقال السيد "**السكرتير الدائم**":

– السيد "**لالويت**" من فضلك.

– لابد أنه في حانوته يا سيدي.

أخذ السبعة يرمق كل منهم الآخر. في حانوته السيد "**لالويت**" رجل الأدب؟ لابد أن السيدة مخطئة. فقال السيد "**السكرتير الدائم**" محددا:

– نحن نرغب في مقابلة السيد "**لالويت**" موظف الأكاديمية.

– إنه هو يا سيدي.. لقد قلت لكم أنه في حانوته والمدخل على الشارع.

حياها السبعة وهم مندهشون ومحبطون في آن واحد وأخذوا يبحثون على حانوت آثار كانت تعلوه هذه الكلمات "**جاسبار لالويت**".

قال "**بانارد**":

– إنه هو!

تأملوا الفترينات التي عرضت أشياء روبابيكيا ولوحة قديمة لم يعد في الإمكان تمييز ألوانها. أعلنت الشفاه المضمومة غيظا:

– إنهم يبيعون كل شيء هنا يا سيدي المدير!

قال السيد المستشار:

– هذا ليس ممكنا! لقد وضع هذا السيد في بطاقته "**أديب**".

ولكن السيد "**السكرتير الدائم**" قال بصوت أجش:

– أرجوكم يا سادة لا تحاولوا إظهار اشمئزازكم.

ثم بجسارة يحسد عليها فتح باب الحانوت وهو لا يشعر بالارتياح، ولكنه لا يجرؤ على التعليق ثم نظر إليهم السيد "**السكرتير الدائم**" نظرات نارية. ظهرت من الظل امرأة كانت ترتدي حول عنقها سلسلة ثقيلة جدا من الذهب وكانت في سن متوسطة ولابد أنها كانت جميلة في يوم من الأيام، وكان شعرها الأبيض الرائع يعطيها شكلا مميزا. سألت هؤلاء السادة عم يرغبون حياها السيد "**بانارد**" بحرارة وعمق وقال إنهم يرغبون في مقابلة السيد "**لالويت**" الأديب وموظف الأكاديمية وأعلن السيد "**السكرتير الدائم**" بصوت صول بالجيش يصدر أوامره لجنوده:

– أعلني حضور الأكاديمية!

ثم حدج الرجال بنية واضحة وجلية أنه على استعداد لأن يقدمهم إلى قسم الشرطة عند أي حركة خاطئة. أطلقت السيدة صرخة صغيرة ورفعت كفها إلى صدرها البارز المنتفخ وبدت تتساءل إن كان سيغمى عليها ولكنها دخلت بعد ذلك في الظل مرة ثانية. قال "**بانارد**":

– لابد أنها السيدة "**لالويت**" إنها بصحة جيدة.

عادت السيدة في الحال تقريبا ومعها رجل لطيف مكرش تزين بطنه سلسلة ضخمة وثقيلة وجميلة من الذهب. كان ذلك الرجل في شحوب الموتى. تقدم نحو الزوار دون أن يستطيع أن ينطق كلمة واحدة. ولكن السيد "**بانارد**" تنبه لذلك وجعله يشعر بالارتياح قال:

– إنه أنت السيد "**جاسبار لالويت**" موظف الأكاديمية الذي تقدم يطلب ترشيحه لشغل كرسي صاحب النيافة مطران "**دابيفيل**"؟ لو كان الأمر كذلك يا سيدي..

كان السيد "**جاسبار لالويت**" لم يتغلب بعد على روعه وانفعاله الخانق.

– لو كان الأمر هكذا يا سيدي فاسمح للسيد مدير الأكاديمية والسيد المستشار ولزملائي وأنا نفسي –السيد "**هيبوليت بانارد**" "**السكرتير الدائم**" أن نهنئك. وبفضلك سيكون مفهوما هذه المرة وللأبد أنه في فرنسا يوجد دائما مواطن شجاع وعاقل يشعر الجمهور الغبي بمثاليته.

ثم قام السيد "**السكرتير الدائم**" بالشد على يد السيد "**لالويت**" بطريقة رسمية سامية وحامية .

فردت السيدة "**جاسبار لالويت**" :

– حسنا.. يا "**جاسبار**"!

نظر "**جاسبار لالويت**" إلى امرأته ثم إلى هؤلاء السادة ثم مرة ثانية إلى السيد "**هيبوليت بانارد**" وقرأ شجاعة بالغة على وجه الأخير حتى أنه شعر بالمرح والسعادة هو الآخر وقال:

– سيدي! إنه لشرف كبير.. اسمحوا لي أن أقدم لكم زوجتي.

عند هذه الكلمات "زوجتي" بدأ السيد المدير والسيد المستشار يرسمان ابتسامة واهنة وغامضة ولكن نظرة عين رهيبة من السيد "**بانارد**" منعتهما في الحال وأعادتهما إلى جدية الموقف.

حيتهم السيدة "**لالويت**" وقالت:

– لا شك أن هؤلاء السادة يريدون الحديث وسيشعرون أحسن في خلفية الحانوت.

ثم جعلتهم ينتقلون إلى الغرفة الخلفية كان تعبير خلفية الحانوت قد أثار امتعاضا حتى عند السيد "**هيبوليت بانارد**" نفسه. ولكن عندما دخل الأكاديميون إلى هذه الخلفية كانوا سعداء جدا عندما وجدوا أنفسهم داخل متحف صغير حقيقي رتب بذوق رفيع للغاية حيث رصت على الجدران والفتارين والموائد أجمل التحف: لوحات وتماثيل صغيرة وحلي وأقمشة دانتيل ثمينة وبرودري من أغلى الأصناف. صاح السيد "**هيبوليت بانارد**" :

– أوه يا سيدتي.. هل هذه خلفية حانوتك! يا للتواضع! إنني لم يسبق لي أن شاهدت ما هو أجمل ولا أثمن ولا أكثر فنا من هذا في كل العاصمة.

أعلن السيد المدير: إنني أظن أنني في متحف اللوفر.

ردت السيدة "**لالويت**" :

– لقد أغرقتنا بالحفاوة والثناء.

أثنى الجميع على عظمة خلفية الحانوت. قال السيد المستشار:

– لابد أنه من الصعب والمؤلم أن تبيعوا مثل هذه الأشياء.

رد السيد "**جاسبار لالويت**" في تواضع:

– يجب على الإنسان أن يعيش .

وافق السيد "**السكرتير الدائم**" بهز رأسه :

– هذا ضروري ولا أعرف أبدا ما هو أنبل من مهنة نشر الجمال!.

وافقت الصحبة :

– هذا صحيح!

استأنف السيد "**بانارد**" :

– عندما أتحدث عن المهنة لا أعبر تعبيرا حسنا إن كبار الأمراء يبيعون مجموعاتهم.. وليسوا تجارا ليفعلوا ذلك. أنت تبيع مجموعاتك يا سيد "**لالويت**" وهذا حقك الشرعي.

سمعت السيدة "**لالويت**" وهي تقول:

– هذا ما أقوله دائما لزوجي يا سيدي وهذا هو الموضوع العادي لمناقشاتنا. ولكنه انتهى بأن فهمني وفي بداية العام القادم لن نقرأ السيد "**جاسبار لالويت** بائع لوحات وخبير آثار" وإنما السيد "**جاسبار لالويت**" جامع تحفي" .

صاح "**هيبوليت بانارد**" فرحا وسعيدا:

– سيدتي! أنت امرأة ممتازة ويجب نشر ذلك في الدورية "كل باريس" .

ثم قبل يدها وقالت:

– آه.. بالتأكيد عندما يصبح من الأكاديمية.

ساد صمت قصير ثم بعض السعلات القصيرة ثم ألقى السيد "**هيبوليت بانارد**" نظرة حادة على كل الناس وجلس على مقعد ذي مساند وقال آمرا:

– اجلسوا.. سنتحدث حديثا جادا.

أطاعوا.. وأدارت السيدة "**لالويت**" بين أصابعها سلسلتها الثقيلة الذهبية. وبجوارها جلس "**جاسبار لالويت**" يحدج السيد "**السكرتير الدائم**" بنظرة القلق الخاصة بالتلاميذ الكسالى الذين يواجهون ممتحنيهم في يوم شهادة البكالوريا. قال السيد "**بانارد**" . أنت رجل أدب هل معنى هذا أنك ببساطة تحب الأدب أم أنك نشرت فعلا شيئا ما؟

من هنا نكتشف أن السيد "**بانارد**" قد اتخذ حيطته في حالة ما إذا كان السيد "**لالويت**" لم ينشر شيئا. أجاب الأخير بثقة بائع اللوحات.

– لقد سبق لي يا سيدي "**السكرتير الدائم**" أن نشرت مؤلفين أستطيع أن أتجرأ وأقول إنهما نالا رضاء الهواة.

– هذا حسن جدا.. وما هو عنوانهما من فضلك؟

– فن صنع الإطارات.

– رائع.

– وآخر حول صحة التوقيعات لكبار رسامينا المشهورين.

– حسنا!

– من الواضح أن هذين المؤلفين لم ينتشرا كثيرا وسط الجماهير العريضة وإنما بين هؤلاء الذين يترددون على فندق البيع الذين يعرفونه.

أعلنت السيدة "**لالويت**" وهي تجعل سلسلتها الذهبية الثقيلة تصدر رنينا:

– إن السيد "**لالويت**" متواضع جدا. إن لدينا هنا خطاب تهنئة من شخصية استطاعت أن تقدر زوجي حق قدره.. إنني أقصد صاحب السمو "**أمير كونديه**".

صاح الأكاديميون جميعا وهم ينهضون كرجل واحد:

– صاحب السمو أمير "**كونديه**"!

– هذا هو الخطاب.

في الحقيقة أخرجت السيدة "**لالويت**" خطابا من صدرها الضخم قالت:

– إنني لا أتركه أبدا فهو عندي بعد السيد "**لالويت**" أعز شيء في العالم.

كان كل الأكاديميين قد تكأكأوا على الخطاب الذي كان فعلا من الأمير ويحوي أعظم الثناء كان الفرح عاما. واستدار السيد "**هيبوليت بانارد**" ناحية السيد "**لالويت**" وشد على يده حتى أوشك أن يحطمها وقال:

– يا زميلي العزيز.. أنت شخص شجاع!

صار وجه السيد "**لالويت**" أحمر قانيا ورفع جبينه.. إنه قد تحكم في الموقف وكانت زوجته تحدجه في فخر وكبرياء.. وكرر الجميع:

– نعم.. نعم... أنت شجاع!

قال السيد "**بانارد**" :

– إن الأكاديمية يشرفها أن يكون بينها شجاع.

قال السيد "**لالويت**" في ذل مصطنع:

– لست أدري يا سيدي إن كان هناك نقطة طموح فعلا بالنسبة لحامل قلم مسكين مثلي في أن يتحمل كل هذا الشرف.

صاح السيد المدير الذي كان يتأمل السيد "**لالويت**" بحب منذ أن قرأ خطاب المديح من صاحب السمو أمير "**كونديه**" .

– ايه.. إن هذا يجعل البلهاء يفكرون!

لم يعرف السيد "**لالويت**" في البداية كيف يفهم مغزي هذه الفكرة، ولكن بدا على وجه السيد المدير حبورا شديدا حتى إنه ظن أن هذا الأخير لم يرد به شرا أو تهكما هذا في الواقع كان حقيقيا. قال:

– في الحقيقة هذا ما نجده في كل هذه الحكاية لقد استمعوا إليه.. كانوا يشعرون بالفضول لمعرفة كيف سيواجه السيد "**لالويت**" سوء حظ الأكاديمية. والآن لم يعد هناك سوى خشية واحدة وهو أن يرجع عن قراره. قال:

– أوه.. إن الأمر بالنسبة لي بسيط جدا! إنني أرثي للإنسانية المسكينة التي تسمح تماما بسلسلة من واحد وعشرين قتيلا في الظلام ولا تسمح أبدا بمقتل ثلاثة أفراد من الأكاديمية على التوالي.

صفقوا له وكان السيد المدير الذي لا يعرف شيئا من لعبة الروليت شرحوا له ذلك. دعوا السيد "**لالويت**" يستمر في الحديث وأخذوا يدرسونه كانوا مسرورين منه ولكن ذلك انقلب إلى إعجاب حقيقي عندما وقعت مناظرة أدبية بحتة بين السيد المستشار والسيد "**السكرتير الدائم**" فاستطاع السيد "**لالويت**" أن يفرق بينهما بسلطة ملحوظة.

وهكذا صارت الأمور وصاح السيد "**بانارد**" متحمسا :

– أخيراً أستطيع أن أعيش بفضل هذا الرجل الشجاع! لم أكن سوى ظل لنفسي.. لقد أصبحت فعلا "دلدولا"!.

صاح السيد المستشار:

– أوه.. يا سيدي "**السكرتير الدائم**".. لا يقال "دلدولا" وإنما "تابعا" لأن الأولى ليست فرنسية!

عندئذ قاطع السيد "**لالويت**" في الحال احتجاجات السيد "**بانارد**" وأعلن في صوت واحد دون تنفس:

– إن كلمة "دلدولا" هي تحويل لكلمة تابع وهي صفة مؤنثة وهي مأخوذة من كلمة الزوائد الموجودة كجيوب في الخدود السمينة وهي تعد مخازن للغذاء الذي لم يستهلكه الجسم في الحال. وفي الخفافيش تلك الجيوب تسهل الطيران بالسماح بدخول الهواء في النسيج الخلوي تحت الجلد و..

لم يكن هناك ما يرد به على هذا الكلام لقد أغلق الجميع أفواههم وهم جميعا من رجال الأكاديمية. ولكن الإعجاب العام أوشك أن يصبح إذلالا والإذلال إلى وجوم.. وسأل السيد المدير نفسه ما هذا الذي كان وقد رد عليه السيد "**لالويت**" بأن ذلك يشير إليه هو لوحة تعداد ثم سأل المدير العام في النهاية ما هي لوحة التعداد؟

بدا وكأن السيد "**لالويت**" يتضخم وألقى بنظرة فخار إلى السيدة "**لالويت**" وقال:

– سيدي المدير.. يقال لوحة التعداد هي اسم مؤنث يأتي من أصل يوناني معناه بوفيه أو مائدة حساب أو رقعة حساب. وعند اليونانيين مائدة موجودة بين مذبحين لتلقي القربان.. وعند الرومان تعني بوفيه يرص عليه الآنية الثمينة والمعنى الرياضي للكلمة آلة حاسبة من أصل أغريقي يستخدمها الرومان في عملياتهم الحسابية. وقد تبناها الروس.. وفي العمارة لوحة تدخل ما بين رأس العمود والعتبة.. و"**فيتروس**" يا سيدي المدير استخدم كلمة عارض للدلالة على التبعية.

عند سماع التاجر وهو يذكر اسم "**فيتروس**" طأطأوا الرؤوس فيما عدا السيد "**بانارد**" الذي كانت عيناه مشتعلتين.. لقد هزمه في النهاية "**فيتروس**" وقال:

– إن مقعد صاحب النيافة مطران "**دابيفيل**" سيشغل عن جدارة.

ولم يتحدثوا بعد ذلك إلى السيد "**لالويت**" إلا بالاحترام الواجب. وأخيرا كان هؤلاء السادة متضايقين بعض الشيء ويخشون أن يرتكبوا أي غلطة في اللغة الفرنسية فاستأذنوا في الانصراف قدموا تهانيهم إلى السيد "**لالويت**" وطبعوا القبلات على يد السيدة "**لالويت**" زوجته والتي بدت لهم متسلطة تماما.

ولكن السيد "**بانارد**" لم يرحل لأن السيد "**جاسبار لالويت**" جعله يفهم أن هناك أمرا خاصا يقوله له.

عندما أصبحا معا بمفردهما صرف السيد "**لالويت**" زوجته آمرا:

– هيا اذهبي يا فتاة!

فعلت السيدة "**لالويت**" ذلك وهي تطلق زفرة وتتفرس في السيد "**بانارد**". سأل السيد "**بانارد**" وهو يشعر ببعض القلق:

– ما الذي أستطيع أن أقدمه لك من خدمة يا زميلي العزيز؟

– لدي سر أريد أن أصارحك به يا سيدي "**السكرتير الدائم**" وهو سيظل بيني وبينك، ولكن من الضروري ألا أخفي عنك شيئا. ونحن معا نستطيع بالتأكيد علاج ما يحيط الأمر من متاعب لأنه بالنسبة للخطبة مثلا.

– ماذا؟ بالنسبة للخطبة؟ اشرح لي يا سيدي العزيز "**لالويت**" أنا لا أفهمك.. ألا تعرف كيف تعد خطبة؟

– أوه.. بلى.. بلى لأن هذا لا يضايقني إطلاقا!

– إيه حسنا.. إذن؟

– إذن.. إنه يقرأ.

– بالتأكيد لأنه طويل جدا فلا يحفظ عن ظهر قلب.

– هذا هو ما يزعجني يا سيدي "**السكرتير الدائم**".. لأنني لا أعرف القراءة.

الفصل العاشر

الصلْب

فزع السيد "**السكرتير الدائم**" قافزا أمام تلك الكلمات الأخيرة وكأنه تلقى ضربة سوط على ساقيه وصاح:

– هذا مستحيل!

ثم نظر إلى السيد "**لالويت**" وهو يظن أن الأخير يهزأ به. ولكن السيد "**لالويت**" سكت الآن وقد نكس عينيه وبدت سحنته حزينة. صاح السيد "**بانارد**" وهو يشد كم سترة "**لالويت**":

– آه.. هذا إذن.. إنك تريد أن تضحك.

قال السيد "**لالويت**" وهو يهز رأسه مثل طفل تعس:

– لا.. لا.. أنا لا أضحك.

ولكن السيد "**السكرتير الدائم**" الذي بدا وقد تملكه الهذيان استطرد قائلا:

– ما هذه القصة؟ هيا رد علي! انظر إلي!

رفع السيد "**لالويت**" نحو السيد "**السكرتير الدائم**" عينين ذليلتين متألمتين.

هذه المرة أحس السيد "**السكرتير الدائم**" برجفة حقيقية تسري في جسده من الرأس حتى القدمين أن المرشح الجديد لعضوية الأكاديمية الفرنسية لا يعرف القراءة!

أطلق السيد "**بانارد**" زفرة عبرت عن الكثير عن حالته النفسية. ثم ترك نفسه يسقط على المقعد وهو يطلق زفرة كبيرة وقال:

– هذا! إنه مزعج.

ثم ساد صمت حزين بين الرجلين. وكان السيد "**جاسبار لالويت**" هو الذي تجاسر ليبدأ الكلام:

– كان بإمكاني أن أخفي عليك ذلك تماما مثلما أخفيته على الآخرين الذين يعملون في السكرتارية الدائمة والذين كانوا يتلقون بريدي والذين كان من الممكن بالتأكيد أن

تتاح لهم الفرصة أن يعرضوا علي كتاباتك (رفع السيد "**هيبوليت بانارد**" عينيه إلى السماء عند سماعه عبارة -أن يعرض علي-) وقد فكرت في أنك لن تلاحظ ذلك في البداية وقلت في نفسي إنه من الأفضل الترتيب معك على الطريقة التي لن يستطيع بها أحد أن يعرف شيئا على الإطلاق.. أبدا..! ألن ترد علي؟ هل موضوع الخطبة هو الذي يضايقك؟ حسنا.. إنك لن تجعله طويلا جدا وستجعلني أحفظه عن ظهر قلب وسأفعل كل ما تريد.. ولكن قل لي شيئا.

لم يفعل السيد "**هيبوليت بانارد**" شيئا.. ظل فاقدا النطق كالنعسان أو المنوم. لقد رأى أشياء عديدة منذ عدة أشهر ولكن هذه هي أغربها وأقواها عضو الأكاديمية لا يعرف القراءة.. أخيرا قرر التعبير عن العواطف المتضاربة التي تتفاعل داخله وتحركه في إثارة.

- يا إلهي! إنه لأمر يثير النكد! آه.. كم هو مثير للنكد! ها هو في النهاية عضو لا يعرف القراءة! إنه يؤدي العمل.. إنه فعلا يؤدي العمل ويصلح له ولكنه لا يعرف القراءة! آه يا إلهي! كم هو أمر جالب للنكد. النكد.. النكد!

ذهب في غضب نحو السيد "**لالويت**" وقال:

- كيف حدث أنك لا تعرف القراءة.. إن هذا يتجاوز كل خيال؟

رد السيد "**جاسبار لالويت**" في جدية شديدة:

- لقد حدث أنني لم أذهب أبدا إلى المدرسة وكان أبي يجعلني أعمل في مهنة عامل في حانوته منذ سن السادسة. لقد حكم أنه من غير المجدي أن أتعلم علما لا يعرفه هو والذي ليس في حاجة إليه للنجاح في أعماله واكتفى بتعليمي مهنته التي كانت مثل مهنتي الحالية وهي تاجر الآثار. لم أكن أعلم على الإطلاق ما هو الحرف، ولكن أحدا لم يكن يمكن أن يخدعني حول إمضاء على لوحة وأنا في سن العاشرة وكنت أعرف أن أميز تماما ما بين "كلامي" و"الينسون". ورغم أنني لم أكن أعرف الكتابة فقد أمليت مؤلفيّ اللذين نالا إعجابا شديدا من صاحب السمو الأمير "**كونديه**".

كانت العبارة الأخيرة حاذقة تماما وأثرت بشدة على السيد "**السكرتير الدائم**" الذي نهض وتمشى في غضب جامح ذهابا وإيابا. وكان السيد "**لالويت**" الذي يراقبه بركن عينه سمعه يمضغ الكلام أو خمن أنه يمضغ عبارة "لا يعرف القراءة.. لا يعرف القراءة.. إنه لا يعرف القراءة".

أخيرا عاد السيد "**هيبوليت بانارد**" في غضب جامح إلى السيد "**لالويت**" وقال:

– لماذا قلت لي ذلك؟ لم يكن من الواجب أن تقوله لي!

– اعتقدت أن ذلك أكثر أمانة وحذقا.

– تا تا تا! كنت حريا أن أعرف ذلك ولكن فيما بعد وهذا لم يكن له نفس الأهمية! اسمع! تصور أنك لم تقل لي شيئا.. هل هذا ممكن؟ أنا لا أعرف شيئا! أنا أعاني من بعض الصمم في أذني.. ولم أسمع شيئا.

زفر السيد "**بانارد**" وقال:

– إنه أمر لا يصدق.. أبدا لم أكن أتصور ذلك عنك وأن أسمعك تقوله.

زفرة أخرى عن السيد "**السكرتير الدائم**":

– والأمر الغريب الخارق حقا هو أنك تتكلم كالعالم وأستطيع أن أقول لك هذا بقوة الآن يا سيد "**لالويت**".. لم نكن فخورين ونحن نتوغل في حانوتك.. ولكنك غزوتنا وقهرتنا.. قهرتنا أدبيا بمعرفتك وهانت لا تعرف القراءة.

– أعتقد يا سيدي ""**السكرتير الدائم**"" أنك لا تعرف شيئا عنها.

– آه.. أحقا؟ أرجو المعذرة ولكن الأمر أقوى مني، إنني لن أفكر في شيء سوى ذلك طوال حياتي، أكاديمي لا يعرف القراءة.

قال "**لالويت**" وهو يبتسم:

– مرة ثانية!

ابتسم السيد "**لالويت**" بدوره هذه المرة ولكن ابتسامته تستحق الشفقة. وقال بصوت شبه مسموع:

– ومع ذلك فإنه أمر قاس.

نطق السيد "**لالويت**" في تواضع هذا الرأي وهو وجوب التعود على كل شيء في الحياة وأضاف:

– على أية حال لو اقتضى الأمر أن تكون عالما من أجل أن تصبح عضوا في الأكاديمية فقد أثبت للبعض من هؤلاء السادة أنني أعرف أكثر منهم.

– نعم! لقد تحدثت عن الإغريق والرومان وعن التوابع و"الدلاديل" وعن "**فيتروف**". من أين إذن تعلمت كل ما حكيته؟

– من قاموس "**لاروس**" يا سيدي "**السكرتير الدائم**".

– من قاموس "**لاروس**"؟

– من قاموس "**لاروس**" المصور. صاح المسكين "**بانارد**" حيث بلغت دهشته حد الذهول:

– ولماذا المصور؟

– بسبب الصور التي تساعدني كثيرا أمام جهلي بمعنى تلك العلامات الغريبة المسماة حروفا.

– وما الذي جعلك تحفظ قاموس "**لاروس**" المصور عن ظهر قلب؟

– إنها السيدة "**لالويت**" نفسها! لقد كان قرارا اتخذناه معا في اليوم الذي كانت لدي النية أن أقدم طلبي لعضوية الأكاديمية.

– وعلى هذا الأساس كان من الأفضل يا سيد "**لالويت**" أن تحفظ قاموس الأكاديمية عن ظهر قلب.

هز السيد "**لالويت**" رأسه موافقا.

– لقد فكرت في ذلك فعلا ولكني كنت أخشى ان تكتشف ذلك.

قال السيد "**هيبوليت بانارد**":

– آه.. حقا!

يالهذا الذكاء الشديد! والجرأة والراي الثاقب كل ذلك جعله يفكر. إنه يعرف أشخاصا في الأكاديمية يعرفون القراءة ولكنهم لا يساوون على الإطلاق السيد "**لالويت**" الذي قاطع أفكاره:

– لم أصل بعد إلا إلى الحرف "أ" ولكنني سانتهي حالا.

– آه! آه! أنت لازلت عند الحرف "أ"!

– إنه عند العلامة "أ" توجد كلمتي تابع ودلدول يا سيدي "**السكرتير الدائم**".. والذي بفضلهما كان لي حظ هزيمتكم في المناقشة الأدبية.

– نعم..! نعم..! نعم...! نعم...!

نهض السيد "**بانارد**" وفتح الباب المؤدي إلى الشارع ارتفع صدره وكأنه يريد أن يحبس فترة طويلة كل الهواء القابل للاستنشاق في العاصمة ثم نظر إلى الطريق والمشاة

والبيوت والسماء وكنيسة "**ساكركير**" التي تحمل صليبها عاليا جدا في الفراغ وفكر بنوع من توارد الأفكار غير المفهوم في كل هؤلاء الذين يرتدون الصليب على الأرض دون أن يظهروه. لم يكن الموقف أكثر رهبة بالنسبة لـ"**سكرتير دائم**" كما هو الآن. اتخذ قراره في بطولة واستدار نحو الرجل الذي لا يعرف القراءة.

– إلى اللقاء يا عزيزي قريبا!

ثم هبط على الرصيف وفتح مظلته الواقية من المطر رغم أنه لا يوجد مطر على الإطلاق. ولكنه لم يعد يتحمل أكثر من ذلك.. إنه سيخفي نفسه قدر المستطاع وذهب في الشوارع على غير هدى.

الفصل الحادي عشر

ظهور رهيب

ما إن أغلق الباب على السيد "**السكرتير الدائم**" حتى سارعت السيدة "**لالويت**" نحو زوجها سألت: إيه حسنا يا "**جاسبار**"؟

– حسنا.. هكذا الأمر لقد قال لي "إلى اللقاء حالا يا زميلي".

– هل .. يعرف كل شيء؟

– إنه يعرف كل شيء.

– هذا أفضل!.. وهكذا لو علمنا في يوم ما أي شيء فلن تحدث مفاجأة.. لقد أديت واجبك.. وهو الذي لم يؤد واجبه.

تبادلا القبلات وكانا مشرقي الوجه قالت السيدة:

– يومك سعيد يا "أكاديمي"!

قال "**لالويت**":ا ليوم السعيد هو يومك أنت.

وكان صحيحا أنه بالنسبة للسيدة "**لالويت**" أن تلعب هذا الدور الغريب. كانت السيدة "**لالويت**" التي تزوجت من السيد "**لالويت**" لأنه ألف كتبا لم تغفر أبدا لزوجها أنه أخفى عنها أنه لا يعرف الكتابة. وعندما اعترف حدث في بيت الزوجية مشاهد مؤثرة تقطع نياط القلوب بعدها حاولت السيدة "**لالويت**" أن تعلم السيد "**لالويت**" القراءة. وكان جهدا ضائعا.. بدا وكأن هناك عملا سحريا يمنعه من التعلم. كانت الأبجدية قد سارت جيدا (بالحروف الكبيرة) والحروف المفردة فقط ولكن لم يستطع السيد "**لالويت**" الوصول إلى المقاطع با.. بي.. بو.. وقد تعلمها فيما بعد ولكنها لم تدخل أبدا في رأسه. وكان هذا أمرا يؤسف له؛ لأن السيد "**لالويت**" كان فنانا وهو يحب الأشياء الجميلة.. وقد أصيبت السيدة "**لالويت**" بالمرض من ذلك. ولم ترض أن تشفى إلا في اليوم الذي عين فيه السيد "**لالويت**" موظفا في الأكاديمية. وعندها أعادت إليه بعضا من الحب.

ولكن بمرور السنين تأثر السيد "**جاسبار لالويت**" بولع زوجته بالأدب فألف كتابيه

الشهيرين ولكن كان دائما هناك ذلك السر يقف حائلا بينهما هذا السر الرهيب الذي يسمم وجودهما السيد "**لالويت**" لا يعرف القراءة.

وبين هذه الأحداث جاء موضوع الأكاديمية. وبالمصادفة الكبرى التي نادرا ما تحدث حضر السيد "**جاسبار لالويت**" وفاة "**ماكسيم دالني**" والسيد "**لالويت**" لم يكن لا هو بالمتطير المتشائم ولا بالأبله. لقد حكم بأن الموت طبيعي عند رجل كان مصابا بداء القلب وأن الموت المأساوي لسلفه لابد كان يطارده فوق رأسه وعجل بوفاته. لقد دهش من الانفعال الجماهيري وابتسم باتساع فمه من كل الغباء الذي انتشر بهذه المناسبة.. مناسبة التهديد بالانتقام الصادر من ساحر شرير كان قد اختفى. وقد دهش عندما علم أن الحدث المزدوج قد أحدث كل هذا الاضطراب في النفوس حتى إن أحدا لم يرغب في أن يعقب صاحب النيافة مطران "**دابيفيل**" وبقي "**مارتان لاتوش**" الوحيد الذي لم يسحب ترشيحه. قال السيد "**لالويت**" في يوم ما في نفسه "الأمر كله مجرد مزاح"! ولكن إذا كانوا لا يرغبون في الحصول على المقعد فإن ذلك لن يخيفني أنا.. إن ذلك سيسعد "**أيلالي**" و"**أيلالي**" هو اسم التدليل للسيدة "**لالويت**" ولكنه أصيب بالخيبة عندما علم أن "**مارتان لاتوش**" قبل بكل هدوء العالم أن ينتخب للمقعد القاتل. ومع ذلك أراد أن يحضر مشهد الاستقبال لـ"**مارتان لاتوش**". ويمكن القول إنه لم يكن أحد يعرف ماذا يدور في رأسه وفي أعماق نفسه والأمل (الذي لم يكن كرجل أمين أن يبوح به) أن يكون القدر الذي لا يمكن توقع ضرباته أن يظل يوجه ضرباته للأكاديمية ومرشحيها. ولا يعلم أحد دون أن يكون ظالما أن يؤكد ذلك وطالما كان السيد "**لالويت**" حضر المشهد الذي أعلنت فيه "**بابيت**" وهي مشعثة الشعر ومهلهلة الثياب عن موت سيدها.

ومهما كان المرء قويا وصلبا هناك أمور تؤثر فيه وقد خرج السيد "**لالويت**" من هذه الفوضى متأثرا جدا وفي هذه اللحظة بالذات بدأ الاهتمام حقيقة في وجه "**اليفاس**" الغريب والفريد والغامض من يكون ذلك الرجل المذكور؟ سأل الناس العالمين بأسرار السحر الشرير. وقابل بعض أعضاء مؤثرين في نادي تحضير الأرواح. ورأى السيد "**ريمون دي لابراسبير**" وعرف سر "**توت**" وطلب زيارة البيانولا. ثم استقل بعد ذلك القطار إلى "**فارين سانت هيلار**" وإذا كان قد عاد من هناك مرعوبا بعض الشيء من الاستقبال الغريب الذي استقبل به، إنه لم يعد على العكس يشك من عدم جدوى كل التركيبات الفرعونية المصرية.

أنه لم يقل شيئا بعد للسيدة "**لالويت**" ورأى أن اللحظة غير ملائمة للكشف عن مشاريعه، "**أيلالي**" قد يتعكر مزاجها بسببها. ولكنها كانت ذات رأس قوي ويمكن أن توافقه عليها مع بعد التحويل. لقد كانت هي الحيطة نفسها وقد نصحته فقط أن يعمل بخطوات ثابتة. لابد أن ذلك الـ"**اليفاس دي سانتايلم دي تايبور دي لانوكس**" لابد أن يكون موجودا في مكان ما.. يجب العثور عليه أو على الأقل الحصول على أخباره.

مرت بضعة أشهر أخرى قضاها في أبحاثه وأصبح السيد "**لالويت**" نافد الصبر. وعندما عرف أن "**اليفاس**" يدعى أيضا "**بورجودي كاري**" فقد رحل إلى الريف وهناك عند نهاية وادي عميق خلف ستارة من أشجار الزيتون التي تضم داخلها بيتا صغيرا متواضعا وقد استطاع اصطياد امرأة عجوز التي لم تكن لا أكثر ولا أقل من أنها أم ذلك الساحر الشرير الشهير. وكانت تلك العجوز تجهل كل معارك الحياة ولم تجد أي صعوبة في أن تخبره أن ابنها كان متعبا منذ أشهر وهذا ما قالته له عن باريس وأهل باريس بعد أن قضى بضعة أسابيع هادئة بالقرب منها ثم رحل إلى كندا. كتب لها "**اليفاس**" وقد أرته الخطابات.. وقد قارن السيد "**لالويت**" التواريخ ولم يعد هناك مجال للشك. أن "**اليفاس**" يهتم الآن بمقعد مطران "**دابيفيل**" اهتمامه بقميصه.

عاد السيد "**لالويت**" منتصرا وقدم خطاب العضوية والنقطة السوداء الوحيدة في تلك المغامرة هي أن السيد "**جاسبار لالويت**" مرشح الأكاديمية الفرنسية لا يعرف القراءة على الإطلاق. ولكنه الوحيد الذي تقدم على عكس كل من يعرفون القراءة لذلك قرر السيد "**جاسبار لالويت**" وضع الأمر في النهاية بين يدي السيد "**السكرتير الدائم**" وكان هذا تصرف الرجال الشجعان. وعليه فقد رأينا أن السيد "**السكرتير الدائم**" قد تغلب على تلك الجزئية البسيطة.

أصبح الفرح والبهجة عارمة داخل بيت الزوجية كانا يتبادلان القبلات والحانوت من حولهما مشرق، قالت السيدة "**لالويت**" وعيناها تلمعان سعادة:

– غدا عضويتك ستكون في كل الجرائد.. إن ذلك سيكون بمثابة ضربة.. يا سيد "**لالويت**" لقد أصبحت مشهورا.

– بفضل من يا "**فيفيل**"؟ بفضلك أنت أيتها الذكية والشجاعة... لقد شجعتني.. لقد قلت لي "انطلق يا "**جاسبار**"!

قالت الحريصة السيدة "**لالويت**" :

– ثم إننا هادئان تماما منذ أن عرفنا أن ذلك الشيء المدعو "**اليفاس**" قد كلفوه في "**باريس**" بكل الجرائم بينما هو يتنزه في هدوء في "**كندا**" .

– سيدتي "**لالويت**" .. إنني أعترف لك أنه بعد الوفاة الثالثة ورغم كل ما استطاع أن يقوله لي ذلك الرجل الغريب "**لوستالو**" العظيم كنت في حاجة إلى الاطمئنان من ناحية "**اليفاس**" ولو كنت علمت أنه يحوم في الجوار لفكرت مرتين قبل أن أقدم طلب عضويتي. إن الساحر الشرير دائما هو إنسان ويستطيع أن يقتل مثل كل البشر.

أعلنت السيدة الممتازة "**لالويت**" بابتسامة مطمئنة ومتشككة في آن واحد:

– بل أحسن من البشر.. خاصة وأنه يقود كما يقولون الماضي والحاضر والمستقبل والنقاط الأربع الرئيسية!

أيدها السيد "**لالويت**" وهو ينفجر ضاحكا:

– وأنه يمتلك أيضا سر "**توت**" .. ولكن هل من الضروري أن يكون الناس بلهاء يا سيدتي؟

– إن ذلك كله فوائد بالنسبة للآخرين.

– أنا عندما شاهدت صورته في مجلة "**البستريه**" وصورته في الفتارين قلت في نفسي في الحال هذا رأس لم يسبق له أن قتلت أحدا!

– هذا مثلي! إن رأسه في الحقيقة مطمئنة... إنها جميلة ونبيلة والعينان رقيقتان جدا..

– مع بعض المكر يا سيدتي "**لالويت**" .. نعم.. هناك بعض المكر في العينين.

– أنا لم أقل لا.. عندما يعلم أنه قتل ثلاثة أشخاص فإنه سيضحك جيدا.

– ولكن من إذن سيعلمه بذلك يا سيدة "**لالويت**"؟ إنه لا يتراسل إلا مع أمه التي هي فقط التي لديها عنوانه كما قالت لي. إن أمه التي هي مجهولة حتى من الشرطة لا تعرف شيئا عما يدور في باريس وأنا لم أحرص على أن أخبرها به، ثم أخيرا فإن "**اليفاس**" قد انسحب من العالم وتوغل في أعماق "**كندا**" .

رددت السيدة "**لالويت**" كالصدى:

– وتوغل في أعماق "**كندا**" .

كانا في غمرة سعادتهما قد تشابكت يداهما التي كانت دافئة من حمى النجاح.

فجأة وهما يرددان في سعادة في أعماق كندا وهما يبتسمان هما الاثنان تصلبت يداهما ثم أصبحتا بعد الحرارة مجمدتين. لقد نظر السيد "**لالويت**" وحرمه من خلف فترينتهما على الرصيف المواجهة وجها ينظر إلى حانوتهما.

كان هذا الوجه في آن واحد نبيلا وجميلا وعيناه رقيقتين روحانيتين. أفلتت صرخة رعب مزدوجة من حنجرتي السيد والسيدة "**لالويت**" لقد تعرف على ذلك الوجه.. الذي كان ينظر عبر زجاج الفترينة.. والذي سحرهما كان "**اليفاس**" "**اليفاس**" بشحمه ولحمه... "**اليفاس دي سانت ايلم دي تايبور دي لانوكس**"!

كان الرجل الذي على الرصيف المواجه لا يتحرك أكثر من التمثال. كان مرتديا بأناقة بدلة كاملة من سترة سوداء وفي يده عصا ومعطف مطوي يتطوح في إهمال على ذراعه. وكانت عقدة رباط عنقه معقودة بطريقة رائعة أظهرت جمال ياقة قميصه وقد وضع على شعره الأشقر قبعة من الجوخ الطري وكان شعره مجعدا قليلا ويلقي ظلا رقيقا على وجهه الذي يشبه آلهة "**أثينا**" أحس كل من السيد والسيدة "**لالويت**" بساقيهما ترتعدان لم يعودا يتمالكان نفسيهما. فجأة تحرك الرجل. وبدأ يخطو خطوات ثقيلة في اتجاه باب الحانوت وهو يرتكز على طرف العصا.

انفتح الباب ودخل. سقطت السيدة "**لالويت**" كالزكيبة على الأرض.. أما بالنسبة للسيد "**لالويت**" فقد القى بنفسه على ركبتيه وهو يصيح:

- الرحمة! الرحمة!

وكان هذا كل ما استطاع أن ينطقه في تلك اللحظة سأل الرجل دون أن يبدو عليه أنه دهش على الإطلاق من التأثير الذي أحدثه ظهوره:

- هل السيد "**جاسبار دي لالويت**" موجود هنا؟

أجاب السيد "**لالويت**" بطريقة عفوية وهو لايزال مفجوعا:

- لا.. لا.. إنه ليس هنا!

كان قد وضع في أكذوبته الكثير من مظهر الحقيقة حتى إنه هو نفسه صدق نفسه لشدة صدقه.

ابتسم الرجل ابتسامة رقيقة ثم أغلق الباب وهو لايزال بهدوئه المثير. ثم تقدم حتى وسط الحانوت.

- هيا يا سيد "**لالويت**" انهض! وتماسك نفسك وقدمني إلى السيدة "**لالويت**".. اللعنة! إنني لن ألتهمك على أيه حال!

اختلست السيدة "**لالويت**" نظرة مواربة على الزائر.. كانت نظرة سريعة ويائسة. عاد إليها الأمل ثانية إن هناك تشابها رهيبا جعلهما ينخدعان في شخصية الزائر هي وزوجها وأغرقت رعبها واستطاعت أخيرا أن تقول بصوت متحشرج.

- سيدي! يجب أن تعذرنا.. أنت تشبه.. كفطر في ماء.. أحد أقاربنا مات في العام الماضي.

تأوهت وقد أنهكها المجهود الذي بذلته.

قال الرجل بصوته الصافي والرزين تماما:

- لقد نسيت أن أقدم نفسي.. أنا السيد "**اليفاس دي سانت ايلم دي تايبور دي لانوكس**".

صاح الاثنان "**لالويت**" وهما يفحصان عينيهما:

- آه..! يا إلهي!

- لقد علمت أن السيد "**لالويت**" تقدم لمقعد صاحب النيافة مطران "**دابيفيل**".

قفز الثنائي فزعا وناح السيد "**لالويت**":

- هذا ليس صحيحا.. من الذي قال لك ذلك؟

وداخل نفسه المختنقة قال: "إنه ساحر شرير حقيقي.. إنه يعرف كل شيء" قال الرجل دون أن يتأثر بالإنكار المستمر:

- لقد أصررت على أن آتي لأهنئك بنفسي.

قال السيد "**لالويت**":

- لم يكن هناك داع لأن تزعج نفسك.. لقد كذبوا عليك.

ولكن "**اليفاس**" جال بنظراته في كل أركان الحجرة قال:

- وفي نفس الوقت أنني لم أكن سأغضب من أن أقول كلمة صغيرة للسيد "**هيبوليت بانارد**" أين هو السيد "**هيبوليت بانارد**"؟

نهض السيد "**جاسبار لالويت**" وهو شاحب.. أمام هذا الموقف الجديد كان عليه أن يحيا مادام لم يمت بعد.. قال وهو يمسح بيده المرتجفة جبينه:

- لا ترتجفي يا زوجتي "**أليلاي**" .. أننا سنتفاهم مع السيد.. السيد "**هيبوليت بانارد**" .. لا تعرفه!

- إذن لقد خدعوني في الأكاديمية؟

أعلن السيد "**لالويت**" بصوت حاسم بات:

- نعم.. نعم.. نعم.. لقد خدعوك في الأكاديمية. في الحقيقة لقد خدعوك.. ليس هناك ما يمكن عمله! لاشك أنهم سيسعدون لو أنني تقدمت بنفسي وجلست على مقعدهم! وألقيت خطبتهم! ثم ماذا أيضا؟ أنا.. هذا أمر ليس من شأني ولا يهمني على الإطلاق.. أنا أكسب عيشي بشرف كما تراني يا سيد "**اليفاس**"، إنني لم أستول على شيء من أي شخص.

أيدته السيدة "**لالويت**":

- من أي شخص!

- وليس اليوم هو الذي أبدأ فيه! إن هذا المقعد لك يا سيد "**اليفاس**" أنت فقط الجدير به.. احتفظ به فانا لا أريده.

قال "**اليفاس**" بمظهره غير المبالي تماما:

- وأنا لا أريده وأنت تستطيع أن تأخذه إذا كان هذا يسعدك.

تبادل السيد والسيدة "**لالويت**" النظرات لقد بدا الرجل جادا. ابتسم. ولكن ربما كان يهزأ بهما. سألته السيدة "**لالويت**":

- هل تتكلم بجدية يا سيدي؟

قال "**اليفاس**":

- إنني دائما ما أتكلم بجدية.

انتفض السيد "**لالويت**" فزعا. وقال وهو يستعيد بعضا من رباطة جأشه:

- لقد اعتقدنا يا سيدي أنك في "**كندا**"! إن السيدة أمك...

- هل تعرف أمي يا سيدي؟

- يا سيدي.. قبل التقدم إلى الأكاديمية..

- إذن أنت تقدمت فعلا؟

- أعني عندما كانت لدي نية التقدم كنت أريد أن أتأكد تماما أن ذلك لن يزعجك.

لقد بحثت عنك في كل مكان... وهكذا كان لي شرف أن أجد نفسي يوما ما في مواجهة السيدة أمك التي أعلمتني أنك موجود في "**كندا**".

– هذا صحيح.. لقد عدت منها.

– آه.. حقا؟ ومتى عدت يا سيد "**اليفاس**" من "**كندا**"؟

كان هذا السؤال صادرا من السيدة "**لالويت**" التي بدأت تعود إلى الحياة. رد عليها "**اليفاس**":

– هذا الصباح يا سيدة "**لالويت**". هذا الصباح نفسه.. لقد أبحرت من "**لاهافر**" ويجب أن أقول لك إنني أعيش هناك كإنسان بدائي وقد تجاهلت تماما كل الكهوف التي حفرت أثناء غيابي حول مقعد صاحب النيافة مطران "**دابيفيل**".

بدأ اللون يعود إلى بشرة الزوجين وقال السيد والسيدة "**لالويت**" معا:

– آه.. حقا؟

– لقد علمت بالأحداث المفجعة التي تلت الترشيحات الأخيرة من صديق والذي دعاني للغداء معه هذا الصباح. لقد علمت أنهم يبحثون عني في كل مكان وقررت في الحال أن أهدئ من كل الناس عن طريق الذهاب ومقابلة سعادة السيد "**هيبوليت بانارد**".

– نعم.. نعم..

– ولهذا ذهبت بعد ظهر اليوم إلى الأكاديمية وأنا أعني بأن أظل في الظل حتى لا يتعرف علي أحد. لقد سألت البواب عم إذا كان السيد "**بانارد**" موجودا. ورد علي البواب أنه رحل مع البعض من السادة.. لقد أكدت إلى البواب أن المهمة عاجلة.. ورد علي أنني من المؤكد أستطيع العثور على السيد "**السكرتير الدائم**" عند السيد "**جاسبار لالويت**" ٣٢ مكرر شارع "**لافيت**" والذي تقدم بطلب ترشيحه خلفا لصاحب النيافة مطران "**دابيفيل**" حيث ذهب إلى بيته هؤلاء السادة في سيارتين ليهنئوه دون تأخير!.. ولكن يبدو أنني مخطئ مادمت أنت لا تعرف السيد "**بانارد**".

ثم ابتسم السيد "**اليفاس**" وهو يقول العبارة الأخيرة أعلن السيد "**لالويت**":

– سيدي.. لقد خرج من هنا.. وأنا لا أريد أن أخدعك أكثر من ذلك. كل ما قلته لنا طبيعي جدا يجعلنا نلعب اللعبة معك بكل حذر!.. آه.. نعم! لقد قدمت طلب عضويتي لهذا المقعد مقتنعا بأن رجلا مثلك لن يكون سفاحا وأنا متأكد من أن كل

الخطابات أرسلت من بلهاء.

أيدت السيدة "**لالويت**" زوجها:

– حسنا.. يا "**لالويت**"! لقد عدت إلى طبيعتك وتتكلم الآن كرجل! ثم أنه لو ندم السيد "**اليفاس**" على المقعد يمكننا دائما أن نعيده إليه وليس عليه ألا يقول كلمة والمقعد له.

تقدم السيد "**اليفاس**" نحو السيد "**لالويت**" وأمسك بيده:

– كن أكاديميا يا سيد "**لالويت**"! كن هكذا بكل راحة وهدوء واطمئنان.. أما بالنسبة لي أرجوك أن تقتنع أنني رجل مسكين مثل الآخرين.. لقد ظننت نفسي في لحظة أنني فوق البشر لأنني درست كثيرا وتعمقت كثيرا. إن الإذلال المحزن الذي تحملته عند فشلي في الأكاديمية جعلني أفتح عينيّ.. وقررت أن أعاقب نفسي وأن أذل نفسي.. وحكمت على نفسي بالعزلة.. وقد اتبعت في ذلك قاعدة المتدينين الرائعين الذين يجيدون أكثر من بينهم ذكاء على حياة التقشف والأعمال اليدوية الشاقة.. وقد عملت في أعماق غابات "**كندا**" بيديّ مثل أحقر قاطع خشب.. وأعود اليوم إلى أوروبا لأبيع بضاعتي.

كان السيد "**لالويت**" قد تأثر أيما تأثر عاطفي؛ لأن كلام ذلك الذي سموه رجل النور كان شديد التأثير ومثيرا للاهتمام ويسيل كالعسل في شرايين هؤلاء الذين أسعدهم الحظ بسماعه. تجرأت السيدة "**لالويت**" وقد جحظت عيناها:

– ولكن ماذا تصنع يا سيدي العزيز إذن؟

قال رجل النور ببساطة ودون خجل:

– أنا بائع جلد الأرانب.

صاح السيد "**لالويت**":

– بائع جلد الأرانب!

وزفرت السيدة "**لالويت**":

– بائع جلد الأرانب!

كرر السيد رجل النور وهو ينحني في رزانة استعدادا للرحيل:

– بائع جلد الأرانب.

ولكن السيد "**لالويت**" منعه وسأله:

– أين أنت ذاهب يا سيدي العزيز "**اليفاس**"؟ إنك لن ترحل هكذا! هل تسمح لنا

على الأقل أن نقدم لك شيئا.

رد "**اليفاس**":

– أنا لا أتناول أبدا أي شيء بين الوجبات.

قالت السيدة "**لالويت**":

– ولكننا لن نسمح بأن تتركنا هكذا.. على أية حال فإن لدينا أقوالا كثيرة لابد أن نقولها.

رد الرجل في رقة:

– لست فضوليا ولا شغوفا بالسماع. وقد علمت ما يكفي هنا مما يمكننا من فعل ما أريد.. وما أن أتمكن من مقابلة السيد "**السكرتير الدائم**" سأستقل القطار إلى "**ليبزيج**" حيث هناك من ينتظرني من أجل تجارتي في الفراء.

ذهبت السيدة "**لالويت**" إلى الباب وقطعت عليه المرور بشجاعة وهي تقول بصوت متهدج:

– آسفة يا سيدي "**اليفاس**".. ولكن ما الذي ستقوله له.. للسيد "**السكرتير الدائم**"؟

صاح "**لالويت**" الذي كان قد فهم انفعال المرأة الجديد:

– هذا صحيح! ما الذي ستقوله للسيد "**بانارد**"؟

– يا إلهي! سأقول له إنني لا أقتل أحدا..

شحب وجه السيد "**لالويت**". وأقسم:

– لا داعي لذلك... إنه لم يصدق ذلك أبدا! وهذه خطوة لا داعي لها.. أؤكد لك ذلك!

– إن واجبي على أية حال هو أن أطمأنه كما طمأنتكما أنتما.. وأن أزيل للمرة الأخيرة الشكوك الغبية التي تثقل على شخصيتي.

نظر السيد "**لالويت**" إلى زوجته ووجهه متغير تماما وقال وهو يتأوه:

– آه.. يا "**فيفيل**" إنه حلم جميل جدا..

ثم ألقى بنفسه بين ذراعيها وهو يبكي دون خجل مصطنع. سأل "**اليفاس**" السيدة "**لالويت**":

– يبدو أن السيد "**لالويت**" يشعر بأسى شديد وأنا لا أفهم شيئا مما قاله.

قالت السيدة "**لالويت**" وهي تبكي بدورها:

– إن هذا يعني أنه لولا علمنا بالتأكيد أنك في باريس، وأنك كنت قد ذهبت إلى "**كندا**" وعدت منها وأنه لا دخل لك على الإطلاق بموضوع وفيات الأكاديمية فإن السيد "**لالويت**" لن يكون أبدا أكاديميا.

– ولماذا هذا؟

انتحبت السيدة "**لالويت**" وهي تقول:

– ايه! إنهم لن يمنحوه المقعد.. وهذا كلام رهيب أن أقوله لأن أحدا لا يريده...! انتظر إذن يا عزيزي السيد "**اليفاس**" حتى تعرف مدى صحة الحقيقة.. وأن يعلم الجميع ببراءتك والتي لا يرغبون في معرفتها.. وانتظر فقط حتى يتم انتخاب زوجي..

قال "**اليفاس**":

– اهدئي يا سيدتي! إن الأكاديمية لن تكون ظالمة لدرجة رفض زوجك الذي جاء إليها هو الوحيد في شجاعة في أيام السوء.

– أقول لك إنهم لا يريدونه.

– بل يريدونه!

– ولكن لا!

– بل نعم!

– "**جاسبار**" لدي ثقة بالسيد "**اليفاس**". قل إذن له لماذا لا تريدك الأكاديمية على الإطلاق إذا كان لديها وسيلة لاختيار أحد غيرك.. إنه سر يا سيد "**اليفاس**"! إنه سر رهيب كان مضطرا لأن يبوح به للسيد "**السكرتير الدائم**". ولكن ذلك السر سيظل سرا بيننا للأبد.. هيا تكلم يا "**جاسبار**"

خلص السيد "**جاسبار**" نفسه من إسار السيدة "**جاسبار**" ثم مال على أذن السيد "**اليفاس**" وهو يخفيها بكفه وهمس شيئا بصوت منخفض جدا حتى إن السيد "**اليفاس**" هو الوحيد الذي سمعه.. ثم أخذ السيد "**اليفاس**" يضحك كما لم يضحك من قبل وقال:

– هذا أمر غريب جدا.. لن أقول شيئا فاطمئنا.

وبعدها شد على يد السيد والسيدة "**لالويت**" بحرارة وأعلن أنه كان سعيدا بمعرفتهما وأن أسعد لحظات حياته أنه يرى السيد "**لالويت**" عضوا في الأكاديمية ثم اتخذ الطريق إلى الشارع في نبل حيث اختفى في الحال.

الفصل الثاني عشر

يجب أن يكون المرء مؤدبا خاصة مع الأكاديمية الفرنسية

لم تكذب السيدة "**جاسبار لالويت**" عندما توقعت أن يكون السيد "**جاسبار لالويت**" شهيرا في اليوم التالي. وخلال شهرين بعد ذلك لم يكن هناك رجل آخر في شهرته. ولم يكن بيته يفرغ على الإطلاق من الصحفيين وقد نشرت صورته مرات ومرات في الجرائد والمجلات في العالم كله.. ويجب القول إن السيد "**لالويت**" كان يستقبل كل المديح وكأنه أمر واقع ومستحق، وكانت الشجاعة التي بدا وكأنه يظهرها في المناسبة قد وفرت عليه التواضع. ونحن نقول إنه يبدو وكأنه يظهرها؛ لأنه في الحقيقة كان السيد والسيدة "**لالويت**" قد ارتاح بالهما فيما يتعلق بمسألة الانتقام من الساحر الشرير.

وكانت زيارة ذلك الساحر الشرير بعد أن أرعبهما تركهما في النهاية ممتلئين اطمئنانا وثقة بالمستقبل وهذا المستقبل لم يتأخر في أن يتحقق. لقد انتخب السيد "**جول لوي جاسبار لالويت**" في الجمعية المرموقة بالاجتماع ولم يحضر أي منافس لينازعه في مجد الاستشهاد. وأثناء الأسابيع القليلة التي تلت لم يمر أبدا أي يوم إلا ويستقبل خلفية المتجر الخاص بتاجر اللوحات زيارة من السيد "**هيبوليت بانارد**" وكان يحضر مساء حتى لا يمكن قدر المستطاع أن يتعرف عليه أحد على الإطلاق. ويدخل بسرعة إلى الخلفية لينفرد مع السيد "**لالويت**" في مكتب صغير حتى لا يخاطران بمقابلة الغرباء. وهناك كانا يعدان الخطبة. ولم يكن السيد "**لالويت**" يتباهى كذبا عندما ادعى أن له ذاكرة حديديةلقد كانت ممتازة. كان سيحفظ خطبته عن ظهر قلب. وقد عملت السيدة "**لالويت**" بنفسها في ذلك وجعلت زوجها يسمع عمله الخطابي في كل وقت حتى في حجرة الزوجية ليل نهار ومن ساعة يقظته إلى ساعة نومه.. وقد علمته أيضا كيف يمسك أوراقه وكأنه يقرأ منها ورتبتها بحيث كل ورقة تقع بعد الأخرى في ترتيبها المعتاد. وأخيرا علمت أعلى الأوراق بعلامة حمراء صغيرة حتى لا يقدم السيد

"**لالويت**" أمامه وأمام العالم الحاضر خطبته ورأسه منكس لأسفل.

وأخيرا وصلت الليلة الشهيرة التي جعلت كل باريس واقفة على قدم وساق وأصاب كل أهلها الحمى.. وأوفدت الصحف مندوبين إلى شارع "**لافيت**" بصفة مستمرة. وبعد التجربة الثلاثية الرهيبة السابقة لم يكن هناك شك عند العديدين أن السيد "**لالويت**" محكوم عليه هو الآخر بالموت الغريب. وكانوا يريدون أن يعرفوا أخبار الرجل الكبير كل خمس دقائق وأصبح من العسير تحقيق ذلك لأن السيد "**لالويت**" كان منهكا ويبدو أنه كان يستريح وقرر ألا يستقبل أحدا في هذا النهار. وكان على السيدة "**لالويت**" أن تتلقى كل الأسئلة. وكانت السيدة المسكينة كما يقولون على "سنجة عشرة" أي كاملة الأناقة ومشرقة؛ لأنه في الحقيقة كان السيد "**لالويت**" في صحة ممتازة.

– إنه في منتهى الصحة يا سيدي المحرر... قل لهم ذلك في جريدتك.. إنه في صحة ساحرة!

كان السيد "**لالويت**" في هذا اليوم قد هرب من داره من باب الحرص.. لأن مجده كان يزعجه في اللحظة التي كان فيها أحوج ما يكون إلى أن يكون بمفرده حتى يحفظ خطابه ويكرره عدة مرات. وكان منذ الفجر قد ذهب في براعة تامة دون أن يلحظه أحد إلى منزل أحد أبناء عمومة زوجته الذي يمتلك محل بيع بالتقسيط في ميدان "**الباستيل**" وقد خصص ذلك الابن عم الطيب التليفون الذي كان في الدور الأول بحيث يصبح في متناول يد السيد "**لالويت**" وبذلك يسمح له بأن تسمَّع على السيدة "**لالويت**" رغم بعد المسافة الصفحات الأكثر صعوبة في الخطبة الشهيرة والتي نعرف فيما بيننا أن كاتبها هو السيد "**هيبوليت بانارد**" وكان الأخير قد حضر حسب الاتفاق لينضم إلى السيد "**لالويت**" حوالي الساعة السادسة مساء إلى ذلك المأوى الصغير في ميدان "**الباستيل**". وكان كل شيء يسير علي خير ما يرام عندما حدث أثناء الحديث الذي جرى بين الزميلين الحادثة التالية عندما قال السيد "**هيبوليت بانارد**":

– تستطيع أن تسعد يا صديقي العزيز. لن يحدث أبدا تحت القبة مشهد رسمي له كل هذا الرنين المشرق مثل الذي سيحدث معك! كل الأكاديميين سيكونون هناك! هل سمعت؟ كلهم! كل منهم يريد أن يظهر في هذه المناسبة المشهودة والخاصة مدى التقدير الذي يكنه نحوك. ولم يعلن أحد حتى "**لوستالو**" العظيم حتى الآن أنه لن

يحضر الاحتفال رغم أننا لا نراه أقصد "**لوستالو**" العظيم في مثل هذه الاحتفالات إلا نادرا لأن الرجل العظيم مشغول ولم يقبل أن يزعجه أحد من أجل "**مورتيمر**" ولا "**دالني**" ولا حتى "**مارتان لاتوش**" رغم أن احتفالاتهم أثارت أكبر قدر من الفضول.

قال السيد "**لالويت**" الذي بدا أكثر حرجا:

– آه.. حقا! السيد "**لوستالو**" سيحضر..

– لقد تفضل وتعطف وكتب لي.

– هذا لطيف منه جدا.

– ما الذي بك يا عزيزي "**لالويت**" إنك تبدو قلقا.

اعترف السيد "**لالويت**":

– إيه حسنا.. نعم.. إن هذا دون شك ليس بالأمر الخطير.. ولكني لم أتعامل أبدا مع "**لوستالو**" العظيم بالطريقة اللائقة.

– كيف هذا؟

– في وقتها ذهبت قبل أن أقدم طلب عضويتي.. لقد ذهبت إلى بيته لأسأله عما يظنه هو سر "**توت**" وحول كل الإشاعات التي أحاطت بموت السيد "**مارتان لاتوش**". لقد تهكم علي بطريقة لا تقبل الشك وفكرة هذا العالم الكبير.. رغم أنه عبر عنها بألفاظ سوقية للغاية صدقني.. هي التي كان لها الفضل الأكبر في قراري التقدم إلى الأكاديمية.

– حسنا.. ولكني لا أرى في ذلك ما يمكن أن يزعجك.

– مهلا يا سيدي "**السكرتير الدائم**" وانتظر.. عندما قدمت طلب عضويتي نهائيا فإنني ملزم بالزيارات الرسمية.. أليس كذلك؟

– بالتأكيد ومفهوم. إنه عمل لو لم تفعله فانه يعتبر علامة على قلة الأدب خاصة وأن الأكاديمية نفسها لم تتردد في أن تقوم بزيارتك في البداية واسمح لي أن أتجرأ وأذكرك بذلك يا عزيزي السيد "**لالويت**".

– نعم.. وحسنا! إن قلة الأدب الرهيبة هذه إنني مدرك أنني ارتكبتها في حق الرجل الذي أنا مدين له بكل العرفان.. إنني لم أقم بأي زيارة بعد ترشيحي لـ"**لوستالو**" العظيم..

فزع السيد "**هيبوليت بانارد**" :

– كيف! لم تقم أبدا بزيارة واحدة لـ"**لوستالو**" ؟

– لا وأيم الحق!

– ولكنك خالفت كل قواعدنا يا سيد "**لالويت**" .

– أعرف ذلك جيدا!

– إن هذا يدهشني أن يصدر عن رجل مثلك! لقد أهنت الأكاديمية!

– أوه يا سيدي "**السكرتير الدائم**" .. لم تكن هذه نيتي!

– ولماذا إذن لم تقم على الإطلاق بزيارة سعادة "**لوستالو**" العظيم؟

– سأقول لك يا سيدي "**السكرتير الدائم**" .. إنه بسبب "**أجاكس**" و"**أشيل**" وهما كلبان ضخمان يرعباني وكذلك بسبب العملاق "**توبي**" الذي منظره لا يطمئن القلب على الإطلاق.

أطلق السيد "**هيبوليت**" آهه دليل الذهول:

– أنت .. ! الرجل الشجاع!

استطرد التعس وهو ينكس رأسه بشكل يثير الشفقة:

– إنني لا أرتعب بسهولة من الوحوش الخرافية وحكاياتها ولكني أخشى تماما الحقائق.. لقد شاهدت الأنياب الصلبة للغاية وسمعت صرخات.

– أي صرخات؟

– أولا عواء كلاب حتى الموت.. ثم في عدة مرات ما يشبه صرخة عارمة بشرية تمزق القلب.

– صرخة بشرية تمزق القلب؟

– لقد أخبرني العالم أنها ربما تكون صرخة بعض اللصوص عند حافة التيه الصلصالي. يا إلهي إنه كان يصرخ وكأنهم يقتلونه.. لقد كانت الأرض خالية ومهجورة والمنزل معزولا.. ولهذا السبب لم أعد إليه أبدا.

كان السيد "**هيبوليت بانارد**" أثناء الكلمات الأخيرة قد جلس أمام مائدة ونظر لساعته:

– هيا بنا!

– إلى أين؟

– وليكن.. سنذهب إلى بيت "**لوستالو**" العظيم! أمامنا قطار بعد خمس دقائق.. وهكذا لن يكون هناك سوى نصف ضرر وأنت لن تستقبل رسميا إلا غدا.

قال "**لالويت**":

– اللعنة! هذا ليس معناه رفضي الزيارة على الإطلاق، الأمر معك يمكن أن يسير.. هل تعرف الكلبين؟

– نعم.. نعم.. والعملاق "**توبي**" أيضا.

– حسنا! وسنتناول العشاء في مطعم "**لافارين**" الصغير بجوار المحطة ونحن ننتظر القطار الذي سيعيدنا.

قال السيد "**بانارد**":

– ما لم يدعونا "**لوستالو**" العظيم على العشاء وهو أمر ممكن الحدوث لو تذكر.

استعدا للجري إلى محطة "**فينسن**" التي كانت قريبة جدا. وفي تلك اللحظة رن جرس التليفون بجوارهما. وكان جهاز التليفون في آخر الحجرة تحت مصباح كهربائي صغير جدا هل كان اختراع الكهرباء بالنسبة له في غير صالحه أم تأثير ما سمعه هو الذي جعله يرتعب لهذه الدرجة، ولكن السيد "**لالويت**" أصبح لونه أخضر. سأله السيد "**بانارد**" في قلق:

– ماذا هناك؟

مال السيد "**لالويت**" على الجهاز وقال:

– لا تذهبي يا "**أيلالي**".. يجب أن تكرري ذلك على مسامع السيد "**السكرتير الدائم**".

سأل الأخير وهو مرتجف:

– ماذا هناك؟

رد السيد "**لالويت**" وقد زاد اخضرارا:

– إنه خطاب من السيد "**اليفاس**".

أصبح السيد "**بانارد**" نفسه أصفر اللون وبعد أن أطلق صيحة رعب وذهول وضع أحد طرفي السماعة على أذنه وأخذ الرجلان ينصتان إلى صوت السيدة "**لالويت**" التي

نقلت إليهما نص الخطاب الذي وصلها في التو من "**اليفاس**" سيدي العزيز "**لالويت**".
أنا سعيد لنجاحك وأنا متأكد من أنه مع رجل مثلك لن أخشى أن يقطع تسلسل حديثكما انفعال مخجل وترى من طابع بريد هذا الخطاب أنه مرسل إليك من "**ليبزيج**" لأنني لازلت في "**ليبزيج**" ولكن منذ أن قابلتك أصابني الفضول أن أستوثق من تلك القضية الخاصة بالأكاديمية. والآن بعد أن فكرت تساءلت عم إذا كان من الطبيعي حقا أن يموت ثلاثة أكاديميين قبل الجلوس على مقعد مطران "**دابيفيل**" وربما كان هناك في مكان ما مصلحة في اختفائهم وهذا ما قلته لنفسي: إن هذا ليس على أية حال سببا ألا أكون قاتلا حتى لا يوجد قتلة بعد على الأرض؟ على أية حال فإن تلك الأفكار لن تستطيع أن تمنعك.. حتى لو كانت هناك فعلا أسباب لاختفاء السادة "**مورتيمر**" و"**دالني**" و"**لاتوش**" فإنه لن يوجد على الإطلاق سبب يمكن أن يجعل السيد "**جاسبار لالويت**" يختفي.. تهاني وتذكاراتي القلبية للسيدة "**لالويت**".

"**اليفاس دي سانت ايلم تايبور دي لانوكس**"

الفصل الثالث عشر

داخل القطار

داخل القطار الذي نقلهما إلى "**لافارن سانت هيلير**" أخذ كل من السيد "**هيبوليت بانارد**" والسيد "**جاسبار لالويت**" يفكران. ولابد أن تفكيرهما كان كئيبا، لأنهما لم يحاولا أن يواصلا الحديث. معبرين عما يدور في ذهنهما. لقد كان خطاب "**اليفاس**" مليئا بالحكمة الرهيبة والتعقل: "ليس سببا الا أكون قاتلا.. وأن يمنع ذلك من وجود قتلة على الأرض".

كانت تلك العبارة قد دخلت رأسيهما وكأنها جرثومة أصابتهما هما الاثنين. ولا شك أن أكثر من أصيب بها وتعذب منها هو السيد "**لالويت**" ولكن السيد "**بانارد**" كان أيضا مصابا جدا بالمرض وطلب بالتأكيد بعض التفسيرات من السيد "**لالويت**" الذي حكى له بالتفصيل زيارة "**اليفاس**" غير المؤذي. ولم يعد هناك أي ضيق من هذا السر مادام السيد "**لالويت**" قد انتخب بصفة نهائية. ولكن لو لم يكن قد انتخب فإنه يظن حسب خطاب "**اليفاس**" انه أي "**لالويت**" كان سيحكي كل شيء على أية حال ولأنه عليه الآن أن يتساءل هل له أن يسعد إلى هذه الدرجة من انتخابه حسب خطاب "**اليفاس**".

أما بالنسبة للسيد "**هيبوليت بانارد**" كان الغم الذي أحسه وقتها لأنه استبعد بعناية بواسطة "**لالويت**" الحريص الماكر من واقعة مهمة لهذه الدرجة وهي ظهور "**اليفاس**" والذي لم يدم –ذلك الغم– تحت ضربات الأفكار السوداء الشنيعة التي أثارتها نظرية "**اليفاس دي لانوكس**" الافتراضية. إذ لم يكن هو فربما كان آخر.. وهل من الطبيعي أن يموت ثلاثة أكاديميين متتالين قبل الجلوس على مقعد صاحب النيافة مطران "**دابيفيل**"؟

إنها عبارة كانت لاتزال تتراقص أمام عينيه ولكن العبارة الأخيرة بالذات هي التي تحطم تفكير المسكين "**لالويت**" (إذا كان هناك سبب في اختفاء السادة "**مورتيمر**" و"**دالني**" و"**لاتوش**" فيمكن إلى حد كبير الا يكون هناك أي سبب لاختفاء السيد "**جاسبار لالويت**").

قد يمكن..! لم يستطع السيد "**لالويت**" هضمه. قد يمكن هذه..!

نظر إلى السيد "**بانارد**" وقد بدأ اطمئنان مظهر سحنة "**السكرتير الدائم**" يقل شيئا فشيئا. وقال فجأة:

– اسمع يا "**لالويت**" إن خطاب ذلك الـ"**اليفاس**" يفتح أمامي آفاقا أكثر ظلاما.. ولكني بكل ثقة وضمير أقدر أنه ليس هناك ما تخشاه.

رد السيد "**لالويت**" بصوت متغير بعض الشيء:

– آه! ولكن أنت غير واثق بذلك أليس كذلك؟

– آه.. الآن.. منذ وفاة "**مارتان لاتوش**" لم أعد واثقا بأي شيء كان في العالم لقد أصابني كثير من تانيب الضمير مع الآخر فلا أريد أن أصاب بالمزيد معك.

صاح "**لالويت**" في صراخ صامت وهو ينتصب بكل طوله أمام السيد "**بانارد**":

– ماذا؟ هل تعتقد أنني فعلا ميت؟

ألقت هزة من القطار بالسيد "**لالويت**" على مقعده مرة ثانية وانهار وهو يتأوه. قال السيد "**بانارد**" محاولا التسرية عن بائع اللوحات:

– لا.. لست أعتقد أنك ميت يا صديقي. لكن هذا لا يمنع من التفكير في أن الوفيات الثلاث الأخرى كانت أكثر طبيعية من هذه الوفاة لو حدثت.

ارتجف السيد "**لالويت**":

– الوفيات الثلاث الأخرى!

– إن هذا الـ"**اليفاس**" يتحدث جيدا.. إن ما قاله يدعو إلى التفكير ويوقظ بانتظام في ذهني ذكريات تحقيقاتي الشخصية.. ولكن خبرني يا سيد "**لالويت**" ألم تكن تعرف لا السيد "**مورتيمر**" ولا "**دالني**" ولا "**لاتوش**"؟

– أنا لم يسبق لي أن تحدثت معهم طوال حياتي.

زفر السيد "**السكرتير الدائم**" وقال بإلحاح:

– هذا أفضل.. ولكن هل تقسم على ذلك؟

– إنني أقسم لك على هذا برأس زوجتي "**أيلالي**".

– هذا حسن.. لا شيء إذن يمكن أن يربطك بمصيرهم.

– أنت تطمئنني قليلا يا سيدي "**السكرتير الدائم**".. ولكنك تظن إذن أن هناك

شيئا ما يربط قدر الآخرين بعضهم ببعض؟

– نعم إنني أظن ذلك الآن.. بعد خطاب "**اليفاس**" وأيم الحق..! إن نظرية ذلك الساحر الشرير قد نومتنا مغناطيسيا وإنه بسبب كل سحره الشرير الممكن لم نبحث في مكان آخر عن السر الطبيعي والإجرامي لهذا اللغز الخانق والمرعب.. ربما كان هناك في مكان ما مصلحة حقيقية في أن يختفوا كرر ذلك السيد "**بانارد**" بحماس وكأنه يتحدث إلى نفسه.. إنه هذا فعلا.. اليس كذلك؟

– ماذا .. إنه فعلا كذلك هذه؟ ماذا تريد أن تقول؟ ماذا عندك؟ إنك تطمئني من قليل ثم ترعبني بعد ذلك! هل تعرف شيئا ما؟

كان "**لالويت**" يتفرس إليه بطريقة تثير الشفقة شد الرجلان على يديهما وزجره السيد "**بانارد**":

– لست أعرف شيئا لو أردت أن تعرف. ولكني ساعرف شيئا لو فكرت! إن هؤلاء الرجال الثلاثة لا يعرف كل منهم الآخر.. هل تفهم ذلك جيدا يا سيد "**لالويت**".. قبل الانتخاب الأول لخلف مطران "**دابيفيل**" لم يسبق لهم أن تقابلوا أبدا.. أبدا! وقد تأكدت من ذلك رغم أن السيد "**لاتوش**" كذب علي عندما قال لي إنهم الثلاثة رفقاء قدامى.. حسنا.. بعد الانتخاب مباشرة اجتمعوا معا.. وتقابلو سرا وخفية. مرة لدى واحد وأخرى لدى الآخر وقد قالوا إن ذلك كان من أجل الحديث عن الساحر الشرير.. ولكي يبطلوا من تأثير تهديداته قد صدقته وصدقه الآخرون. ياله من أمر نكد ومزعج! لابد أنهم كان لديهم شيء آخر يتحدثون فيه..! ولابد أن كلهم كانوا يخشون شيئا ما. لأنهم اختفوا جيدا ولم يستطع أحد أن يسمعهم!

قال السيد "**لالويت**" وقد كف عن التنفس:

– هل أنت متأكد من ذلك؟

– عندما اقول لك ذلك! أوه.. لقد حصلت على المعلومات.. هل تعرف أين التقوا لأول مرة؟

– لا وأيم الحق.

– خمن!

– كيف أستطيع ذلك..!

– حسنا.. هنا.. نعم هنا في هذا القطار وبمحض الصدفة البحتة.. التقوا وهم يذهبون لزيارة السيد "**لوستالو**" قبل الانتخاب..! وعادوا معا بالتأكيد.. ومن وقتها لابد أنه حدث لهم شيء ما رهيب قبل موتهم الغامض ماداموا قد تواعدوا على لقاءات سرية لهذه الدرجة. هذا ما أظنه أنا.

– ربما كان هذا صحيحا.. إن شيئا ما لم يعرف ولكن بالنسبة لي يا سيدي "**السكرتير الدائم**" لم يحدث لي شيء.. لي أنا...

– لا.. لا بالنسبة لك لم يحدث شيء... ولهذا السبب أعتقد أنه بالنسبة لما يخصك تستطيع أن تكون مطمئنا وهادئا يا عزيزي السيد "**لالويت**" نعم وايم الحق مطمئنا جدا إلى حد ما.. أقول لك (إلى حد ما) أفهم ذلك جيدا لأنني الآن لا أستطيع أبدا تحمل أي مسؤولية. أي مسؤولية! في هذه اللحظة وقف القطار وصاح موظف على الرصيف: "**لافارين سانت هيلير**"، قفز السيدان "**لالويت**" و"**بانارد**" فزعين.. لقد كانت أفكارهما بعيدة عن "**لافارين**" وعن سبب حضورهما ومع ذلك هبطا، قال السيد "**لالويت**" للسيد "**بانارد**" :

– سيدي "**بانارد**" كان من الواجب عليك أن تحكي لي ماذا كنت ستقول لي في أول زيارة لك لحانوتي.

الفصل الرابع عشر

صرخة إنسانية مؤلمة

لم يعثرا أبدا على عربة في المحطة وكان عليهما أن يتخذا طريق "**شينيفرييير**" عند هبوط الليل. وعلى كوبري "**شينيفرييير**" وقبل النزول إلى حافة التيه الصلصالي وهو أقصر طريق مؤدي إلى مسكن "**لوستالو**" العظيم وقف "**لالويت**" مما أدى إلى وقوف السيد "**بانارد**" أيضا وساله:

– حسنا يا صديقي العزيز "**بانارد**" ألا تظن حقا أنهم سيقتلوني؟

صاح السيد "**السكرتير الدائم**" الذي بدا عصبيا تماما:

– من هم؟

– ولكن هل أعرف أنا؟ هؤلاء الذين قتلوا الآخرين.

سال "**بانارد**" هذه المرة بلهجة الكلب المسعور:

– ومن قال لك إنهم قتلوا؟

– ولكن أنت الذي قلت.

– أنا؟ أنا لم أقل شيئا! هل تفهم؟ لأنني لا أعرف شيئا.

– إن ما أردت أن أبوح لك به يا سيدي "**السكرتير الدائم**" هو أنني أريد من كل قلبي أن أكون عضوا بالأكاديمية.

– ولكنك عضو بالفعل!

هبطا إلى حافة الطريق.. وكان السيد "**لالويت**" تطارده فكرة ثابتة فقال:

– ولكنني على أية حال لا أريد أن أقتل.

هز السيد "**هيبوليت بانارد**" كتفيه.. إن ذلك الرجل الذي لا يعرف القراءة ولكنه في نفس الوقت يعرف جيدا أنه عندما يتقدم إلى الأكاديمية ليس هناك ما يخشاه من كل ذلك الذي كان يخشاه كل من تقدم للترشيح. وكان يعرف جيدا أن ذلك الرجل الذي اعتبره بطلا والذي لم يكن سوى ماكر قد بدا يشعر بعدم التعاطف معه. وقرر أن يذكره

باحترام نفسه بطريقة خشنة قدر المستطاع.

– يا سيدي العزيز.. هناك في الحياة مواقف تستحق أن يقامر من أجلها المرء ببعض الشيء!

فكر -السيد "**هيبوليت بانارد**" في أن شكاوى السيد "**لالويت**" في الحقيقة أصبحت مزعجة ومثيرة للاشمئزاز لقد بدا الموقف أكثر صعوبة وغموضا وشديد التهديد. لقد فكر السيد "**هيبوليت بانارد**" إنه مع ذلك كان الموقف لايزال صالحا ليصبح السيد "**لالويت**" عضوا في الأكاديمية.

كان السيد "**لالويت**" قد خفض أنفه وعندما رفعها كان قد ألقى وسط برودة المساء هذه العبارة التي كانت في الحقيقة مستهلكة فقد قال:

– هل من الضروري فعلا أن ألقي هذه الخطبة؟

كانا قد وصلا إلى نهاية التيه الصلصالي وكانت أجنحة الليل قد التفت حول المسافرين نظر السيد "**السكرتير الدائم**" إلى ماء البركة الأسود العميق وإلى ظل السيد "**لالويت**" المتهدل. اجتاحته رغبة شديدة أن يغرقه بكل بساطة مجرد أن يعطيه لكمة من كتفه.

فقط بدلا من أن يسرع بدفع هذا اللحم البشري المتهدل إلى وسط الماء فإن "**السكرتير الدائم**" أمسك ذراع السيد "**لالويت**" في ود. قد فعل ذلك لأن السيد "**هيبوليت بانارد**" أصلا كان أقل الناس جميعا إجراما ثم إنه فكر فجأة ما يمكن أن يكلف الأكاديمية موت الرابع.

ارتجف أمام هذه الفكرة.. آه.. ما الذي يفكر فيه إذن؟ اعتبر نفسه مجنونا! حث الخطوات.. وخطوات السيد "**لالويت**"! لقد أقسم في نفسه عرفانا لا نهاية له لهذا الرجل.. حاول أن يثير لديه حماسا أكاديميا والذي سيلوم نفسه لو جعله يبرد وينطفئ وصف له نصر الغد وأوضح له حالة الجمهور العصبي السعيد وأخيرا فطر قلب السيد "**لالويت**" كما يقولون وهو يصور له آيات الإعجاب والثناء التي ستوجه إلى السيدة "**لالويت**" باعتبارها زوجة رجل اليوم المجيد والمشرق!

وأخيرا احتضن كل منهما الآخر وهما يتبادلان التهاني ويطمئن كل منهما الآخر ويتهم كل منهما الآخر بانه كان طفلا تسيطر عليه الأفكار السوداء. ثم ضحكا بصوت عالٍ كرجلين شجاعين عندما أدركا أنهما وصلا إلى بوابة "**لوستالو**" العظيم. قال السيد "**لالويت**":

– انتبه إلى الكلبين!

ولكن لم يسمع للكلبين أي صوت.. الأغرب من ذلك أن البوابة كانت مفتوحة.

ولم يرن السيد "**هيبوليت بانارد**" الباب على الإطلاق لإعلان وصول الغريبين. قال:

– أين إذن "**أجاكس**" و"**أشيل**"؟ و"**توبي**"؟ إنه لم يحضر..

في الحقيقة لم ينزعج أحد.. قال السيد "**السكرتير الدائم**":

– لندخل!

عاد "**لالويت**" إلى الشكوى:

– ولكني أخاف الكلاب!

كرر السيد "**هيبوليت بانارد**":

– ولكني قلت لك إنني أعرفهما من زمن طويل. وهما لن يفعلا بنا أي أذى.

قال السيد "**لالويت**" مصطنعا الشجاعة:

– إذن سر أنت أمامي.

وهكذا وصلا إلى الشرفة الأمامية وكان أقصى درجات السكون تسود الحديقة والفناء والبيت. وكان باب البيت الرئيسي هو أيضا مواربا وكانت شعلة غاز مشتعلة بضعف لتضيء الردهة صاح السيد "**بانارد**" بأعلى صوته:

– هل يوجد أحد؟

ولكنه لم يتلق ردا.. ولم يسمعا سوى السكون غير الطبيعي وكانت كل الأبواب المطلة على الردهة مغلقة، وفجأة بينما كان السيدان "**لالويت**" و"**بانارد**" واقفين في مكانهما وهما في شدة الحرج وكل ممسك بقبعته بين يديه. رنت الجدران رنينا رهيبا وترددت وسط الليل صرخة إنسانية مرعبة.

الفصل الخامس عشر

القفص

انتصبت خصلة شعر السيد "**السكرتير الدائم**"عالية فوق جمجمته. واستدار السيد "**لالويت**" على الجدار في حالة شديدة من الضعف وتأوه:

– هذه هي الصرخة.. الصرخة المؤلمة التي تمزق نياط القلوب.

واستطاع السيد "**بانارد**" بما تبقى لديه من قوة أن يخرج رأيه:

– إنها صرخة شخص وقع له حادث.. لابد أن نرى..

ولكنه لم يتحرك.. قال "**لالويت**" بصوته المنخفض:

– لا.. لا.. إنها نفس الصرخة.. أنا أعرفها.. إنها صرخة.. توجد هكذا باستمرار في البيت.

هز السيد "**هيبوليت**" كتفيه وقال:اسمع!

تحشرج صوت السيد "**لالويت**". وهو يبتلع ريقه:

– لقد عادت..

سمعا الآن ما يشبه حشرجة مؤلمة.. أنينا بعيدا لا ينقطع..

– لقد قلت لك إن حادثا وقع.. إنه آت من أسفل.. من المعمل... ربما كان السيد "**لوستالو**" العظيم قد أصيب بضرر.

ثم خطا السيد "**بانارد**" بضع خطوات في الردهة. لقد قلنا إنه في تلك الردهة يوجد الدرج المؤدي إلى الأدوار العليا. ولكن تحت ذلك الدرج يوجد درج آخر يهبط إلى المعمل.

مال السيد "**بانارد**" من فوق درجات السلم ومن هناك وصلت إليه التأوهات شبه واضحة ومميزة ومختلطة بكلام غير مفهوم ولكنه لابد أنه يعبر عن ألم رهيب.

– لقد قلت لك إنه لابد وقع حادث لـ"**لوستالو**" العظيم.

وهبط السيد "**بانارد**" الدرج بشجاعة. تبعه السيد "**لالويت**" وقال بصوت عالٍ:

– على أية حال نحن اثنان...!

ثم كلما هبطا. سمعا التأوهات والنحيب وأخيرا عندما وصلا إلى المعمل لم يسمعا شيئا.. كان المعمل خاويا. نظرا في كل مكان حولهما.

بدا النظام ساريا على المكان.. كل شيء في مكانه.. القنينات وأنابيب الاختبار ومواقد الصلصال داخل المدفاة الكبيرة والمستخدمة في إجراء التجارب وآلات ومعدات الفيزياء على الموائد وكل شيء نظيف ومرصوص بانتظام في مكانه.. لم يكن هذا على الإطلاق معمل رجل وسط العمل والتجارب كما هو واضح جلي وقد دهش السيد "**بانارد**" من ذلك أيما اندهاش ولكن الذي أدهشه أكثر كما سبق لي أن قلت إنه لم يعد هناك ما يسمع ولا يرى مما جعله يتبع آثر تلك الآلام الرهيبة والتي جمدت دماءهما. هو و"**لالويت**"! قال "**لالويت**":

– غريبة! لا يوجد أحد.

– لا أحد.

ومرة ثانية هزتهما الصرخة الكبرى مرة ثانية وقد مزقت نياط قلبيهما وأعطافهما. وبدا وكأنها رفعتهما من فوق الأرض. وكانت صادرة من نفس الأرض. من تحت نفس الأرض.

تمتم "**لالويت**":

– هناك من يصرخ من الأرض.

أشار السيد "**بانارد**" إليه نحو فتحة كبيرة في الأرضية. وقال:

– إنها آتيه من هنا.

أسرعا نحوها جريا:

– إنه شخص ما لابد وقع في هذه الحفرة وكسرت ساقاه.

مال السيد "**بانارد**" من فوق الفتحة وكانت التأوهات قد كفت ثانية. قال السيد "**بانارد**":

– هذا شيء لا يصدقه عقل.. هناك حجرة لا أعرفها.. وكأنها معمل تحت الأول.

هبط بعض الدرجات وهو يفحص كل شيء في حذر وحرص فيما حوله.

وكان المعمل التحتي مثل ذلك الذي يعلوه مضاء بشعلة من الغاز. هبط السيد "**بانارد**" في حرص.. وكان من الواضح أن السيد "**لالويت**" يندم على زيارته لـ"**لوستالو**" العظيم.. في ذلك المعمل تحت الأرضي كانت نفس الأشياء الموجودة في المعمل الأول ونفس كل الترتيبات فيما عدا أن كل شيء كان في فوضى عارمة وهي

شغالة تماما في أعمال التجارب.

أخذ السيد "**بانارد**" يبحث بينما فتح السيد "**لالويت**" عينيه على اتساعهما لم يشاهدا أحدا وفجاة وهما يستديران نحو ركن أحد الجدران تراجعا وهما يطلقان صرخة رعب. كان ذلك الركن من الجدران مفتوحا ومركبا عليه شبكة حديدية.. وخلف تلك الشبكة الحديدية كان رجل محبوس وكأنه حيوان بري. نعم. رجل له عينان متقدتان يحدجانهما في صمت.

ولما لم يقولا شيئا وظلا ثابتين في مكانهما كالتماثيل قال الرجل خلف القضبان:

– هل حضرتما حتى تحرراني؟ في هذه الحالة أسرعا.. لأنني أسمعهم وهم عائدون وهم سيقتلونكما كالذباب.

لم يتحرك أي من "**بانارد**" أو "**لالويت**" هل يفهمان؟ هدر الرجل صارخا مرة ثانية:

– هل أنتما أصمان؟ لقد قلت لكما إنهم سيقتلونكما كالذباب.. اهربا بجلدكما.. اهربا..! ها هم.. أنا أسمعهم.. إن العملاق يجعل الأرض تتشقق!.. آه يا للتعاسة؟ إنهم سيجلبون الكلاب تأكلكم! وفي الحقيقة سمع نباح الكلاب الغاضبة هناك أعلى الأرض. هذه المرة فهم الزائران!

دارا حول نفسيهما وكأنهما ثملان باحثان عن منجى.. والآخر في قفصه يكرر وهو يهز القضبان وكأنه يريد انتزاعها من مكانها.

– بواسطة الكلاب! لو عرفوا أنكم اكتشفتم السر! سر "**لوستالو**" العظيم آه!.. آه!.. آه!.. مثل الذباب.. بواسطة الكلاب.

كان "**بانارد**" و"**لالويت**" عاجزين عن سماع المزيد وقد جن جنونهما رعبا فاندفعا إلى السلم الذي يؤدي إلى الفجوة. هدر الرجل صارخا من خلف القضبان:

– من هناك! إنكم لن تسمعوهم إذن وهم نازلون آه! ها هم.. ها هم.. ومعهم الكلاب.

لابد أن "**أشيل**" و"**أجاكس**" قد اخترقا البيت في تلك اللحظة وتوغلا فيه؛ لأن البيت تردد بداخله ضربات فكوكهما القوية الهائلة مثل الجحيم وامتلأ بنباحهما الشيطاني.

كان "**بانارد**" و"**لالويت**" قد سقطا أسفل الدرج وهما يصرخان رعبا كالمجانين ويصيحان من أين؟ من أين؟.. من أين؟ بينما الآخر يغطيهما بالشتائم وهو يأمرهما بالسكوت.

– إنه سيغرسكما بالشوكة مثل الآخرين ثم يقتلكما مثل الذباب! اخرسا إذن! اسمعا!.. آه لو تدخل الكلبان.. فإن النتيجة جيدة.. اسكتا هل يمكن أن تسكتا!

ظن "**بانارد**" و"**لالويت**" أنهما رأيا بالفعل أنياب "**أجاكس**" و"**أشيل**" الرهيبة في أعلى الدرج من الفتحة وقد اندفعا إلى الطرف الآخر من الكهف في الناحية الأخرى من شبكة القضبان الحديدية التي على القفص البشري الذي حبس فيه الرجل وهما الآن يتضرعان إلى الرجل التعس أن ينقذهما. كانا يتوسلان إليه بكلمات لا سابق لها وكانا يلهثان ويشهقان وهما يحسدان الرجل المحبوس داخل قفصه.

ولكن الرجل نزع منهما ما تبقى لديهما من شعر خلال القضبان وكان يهز رأسيهما بفظاعة آمرا إياهما أن يلزما الصمت. وكان العملاق لايزال يشقق الأرض تحت قدميه.. ولكنه لا يشك في شيء.

– اصمتا.. سننقذ أنفسنا نحن الثلاثة! اسمعاني إذن!.. إن العملاق يشقق الأرض ولكنه لا يشك في أمركما! ذلك المتوحش! آه.. ياله من أبله وساذج! لقد كان الحظ في صفكما..! هيا! هيا بسرعة! هناك في الدرج الموجود يوجد مفتاح.

فتح "**لالويت**" و"**بانارد**" الدرج الخاص بالمائدة الموجودة هناك في وقت واحد وفتشا في ارتباك بيديهما المرتجفين. استمر الآخر:

– مفتاح! يفتح الممر.. إن الكلبين مقيدان بالسلاسل. ويجب انتهاز الفرصة.

أعلنا معا.. هذان التعسان وهما يبحثان بلا جدوى داخل الدرج.

– ولكن المفتاح؟ المفتاح؟

– حسنا.. إنه المفتاح الذي يفتح السلم الصاعد إلى الفناء بسرعة ابحثا.. إنه يضعه هناك باستمرار بعد أن أعطاني الطعام.

– ولكن لا يوجد مفتاح!

– إذن لابد أن العملاق يحتفظ به.. ذلك الوحش! صمتا! ولكن لا تتحركا إذن بعد ذلك! آه هاهم هاهم! إنهم يهبطون والآن العملاق يشقق الدرج.

استدار "**لالويت**" و"**بانارد**" مرة أخرى وهما على استعداد للاختفاء تحت الأثاث. أو الاختباء داخل الأصونة. همس السجين: آه.. لا تفقدا الآن صوابكما بهذه الطريقة! وإلا ضعنا.. هيا هناك في ركن المدخنة هناك.. نعم هناك بالتأكيد على جانبيها! لا تتحركا وإلا ما أجبت على أي شيء.. إنه سيذهب للغداء حالا. ولكنه لو رآكما لقتلكما كالذباب.. يا سادتي الأعزاء المساكين.. مثل الذباب..!

الفصل السادس عشر

بواسطة الأذنين

اختفى كل من السيدين "**بانارد**" و"**لالويت**" وهما شبه محتضرين في ركن من ركني المدفأة الضخمة للمعمل تحت الأرضي. وهناك أصبحا في ظلام ليل حالك تماما. لم يعودا يريان شيئا. وكل ما تبقى لهما من الحياة تجمع في أذنيهما. في الحقيقة لم يعودا يعيشان إلا بواسطة الأذنين.

كان العملاق "**توبي**" الذي كان وهو ينزل درج المعمل تحت الأرضي هو الوحيد الذي جعلهما يسمعان بعض الزمجرات القاتلة. قال:

– لقد نسيت الفتحة مرة أخرى مفتوحة يا سيدي سترى أن ذلك سيجلب عليك التعاسة.. في النهاية..!

سمعا صوت الخطوات الوحشية للعملاق "**توبي**" وهو يقترب من القفص.. أي من القضبان التي يوجد خلفها الرجل الذي كان محبوسا.

– لابد أن "**ديديه**" انتهز الفرصة حتى يصرخ صراخا يصم الآذان.. هل صرخت يا "**ديديه**"؟

رد صوت السيد "**لوستالو**" النشاز:

– بالتأكيد صرخ! لقد سمعته.. أنا.. عندما كنت عند شجرة البلوط الضخمة وأنا أضع يدي على "**أجاكس**" ولكن لم يكن هناك أي شخص في تلك الساعة في الجدار.

زمجر العملاق:

– إن أحدا لن يعرف أبدا.. ويمكنك أن تستقبل الزيارات مثل السابق. يجب دائما إغلاق الفتحة وبغلقها نشعر بالهدوء والسلام إنها مبطنة باللباد مما يمنع سماع أي صوت.

– لو أنك لم تترك بوابة الحديقة مفتوحة أيها المجنون ما هرب الكلبان! أنت تعلم أنهما لا يعودان إلا على صوتي.. ولم أكن أفكر في الفتحة ورائي.

سأل العملاق:

- هل صرخت يا "**ديديه**"؟

ولكنه لم يحصل على رد.. كان الرجل الذي خلف القضبان لا يتحرك أكثر من الميت.

استطرد العملاق:

- لقد كان الكلبان رهيبين هذا المساء.. آه لقد وجدت صعوبة في قيدهما بالسلاسل. وعندما عادا اعتقدت أنهما سيأكلان البيت. لقد كانا مثل المساء الذي وجدنا فيه هنا السادة الثلاثة في زيارة للقفص الخاص بـ"**ديديه**" لقد كان مساء مثل هذا المساء يا سيدي حيث هرب الكلبان واضطررت للجري وراءهما.

قال صوت "**لوستالو**" العظيم الأجش:

- لا تحدثني أبدا عن ذلك المساء يا "**توبي**".

استمر العملاق:

- إنه ذلك المساء الذي اعتقدت فيه فعلا أن ذلك سيجلب علينا سوء الحظ! لأن "**ديديه**" صرخ! وثرثر.. أليس كذلك يا "**ديديه**".. إنك ثرثرت؟

ولا رد على السؤال فاستأنف العملاق بصوت ضخم وبطيء:

- ولكن ذلك كان بالنسبة لهم.. لقد كان قد جلب لهم النحس.. لقد ماتوا..

- نعم لقد ماتوا..

- الثلاثة كلهم...

ردد صوت "**لوستالو**" العظيم كصدى رهيب:

- الثلاثة كلهم.

ضحك العملاق في قسوة وفظاعة:

- هذا.. هذا كان كعمل عاجل.

لم يرد عليه "**لوستالو**" ولكن شيئا ما مثل زفرة.. زفرة رعب وقلق مرت فوق رأس الرجلين اللذين لابد يعانيان المحنة فاحدثا صوتا في المكان الذي يحتلانه. قال "**لوستالو**":

- هل سمعت؟

قال العملاق:

- هل هذا أنت يا "**ديديه**"؟

رد صوت الرجل وراء القضبان:

- نعم.. إنه أنا.

سأل "**لوستالو**":

- هل أنت مريض؟ انظر إذن يا "**توبي**" ما الذي به ربما كان "**ديديه**" مريضا؟ لقد صرخ من قليل لدرجة تفجر الصدر.. ربما كان جائعا؟ هل أنت جائع يا "**ديديه**"؟

جاء صوت الرجل وراء القضبان يقول:

- امسك.. هذه هي التركيبة.. لقد اكتملت يمكنك الآن أن تعطيني ما آكله.. لقد استحققت فعلا عشائي..

أمر "**لوستالو**" العملاق:

- اذهب وأحضر منه التركيبة وأعطه العشاء.

رد "**ديديه**" معترضا:

- انظر أولا إن كانت التركيبة صحيحة، أنا لم أتعود على سرقة خبزي.

سمعت خطوات العملاق ثم ضجة ورقة مكرمشة لابد أن السجين مررها لـ"**توبي**" عبر القضبان ثم ساد صمت لابد أن "**لوستالو**" العظيم كان خلاله يفحص التركيبة. صاح في حبور شديد:

- أوه.. هذا.. إنه رائع.. إنه رائع فعلا يا "**ديديه**" ومفرح.. ولكنك لم تقل لي إنك عملت في هذا..!

- أنا لا أعمل إلا في هذا منذ ثمانية أيام.. ليل نهار.. هل تسمع؟ ليل نهار.. ولكن بالنسبة للعشاء هنا.. هل سيتم؟

- نعم سيتم.

أطلق "**لوستالو**" زفرة كبرى وقال:

- يا للعبقرية!

سأل "**توبي**":

- هل وجد أيضا شيئا ما؟

- أوه.. نعم.. نعم.. لقد عثر أيضا على شيء آخر.. وما عثر عليه وضعه في تركيبه ممتازة بعد ذلك أخذ "**لوستالو**" و"**توبي**" يتحدثان بصوت منخفض. ولو كان من يختفيان في المدفأة لازالت لديهما قوة للإنصات ما سمعا على الإطلاق شيئا مما كانا يقولانه.

استطرد "**لوستالو**" بصوت عالٍ:

- ولكن هذه هي الكيمياء الحقيقية يا بني! إن ما اكتشفته أنت هنا هو شيء ما مثل تحول المعادن!.. هل أنت واثق بالتجربة يا "**ديديه**" ؟

- لقد كررتها ثلاث مرات بكلوريد البوتاسيوم آه! لن يقال بعد ذلك أبدا إن المادة غير قابلة للتحول! إن هذا في الحقيقة شيئا آخرا إنه بوتاسيوم حقيقي جديد الذي حصلت عليه!.. بوتاسيوم مؤين لا تشابه على الإطلاق بينه وبين الآخر.

سأله "**لوستالو**" :

- وهل نفس الشيء بالنسبة للكلور؟

- نفس الشيء بالنسبة للكلور.

- اللعنة!

كرر "**لوستالو**" والعملاق ذلك عدة مرات بصوت منخفض ثم قال "**لوستالو**" أيضا:

- ما الذي تريده مقابل تعبك يا "**ديديه**" ؟

- إنني أريد مربى جيدة حقا وكأسا من الشراب .

وافق السيد "**لوستالو**" العظيم:

- نعم.. هذا المساء يمكنك أن تعطيه كأسا من الشراب فإنها لن تضره.

ولكن فجأة تحطم السلام النسبي الذي ساد ذلك الكهف العميق بطريقة مرعبة بواسطة "**ديديه**" بدا وكأن هناك عاصفة تحت الأرض انفجر فيها الغضب والصرخات والتأوهات والشكاوى واللعنات! لم يتح للسيد "**لالويت**" من جانب والسيد "**بانارد**" من جانب آخر الفرصة أن يمنعا صرخات الرعب من أن تعبر شفاههما كان وكأن الرجل خلف القضبان قد اندفع كالحيوان المفترس نحو قضبان قفصه وصرخ.

- قتلة! قتلة! رجال عصابات بؤساء لص أنت يا "**لوستالو**"! سجان عتيق! حارس مساجين محكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة على عبقريتي! وحش أعطيه المجد ولا يدفع لي سوى قطعة خبزا إن جرائمك ستعاقب. هل تسمعني أيها البائس! الله سيعاقبك! وجرائمك سيعرفها كل العالم والكون.. يجب فعلا أن يحضر.. هؤلاء الرجال الذين سيخلصوني، إنك لن تقتلهم جميعا.. وسأسحبك ككلب مسعور بخطاف الجزار أيها اللص قاطع الطريق وسأسحبك من جلد رقبتك.

قال "**لوستالو**" هازئا:

– كفى.. أخرسه يا "**توبي**"!

سمعت صوت رنين القضبان وهي تدور حول مفصلاتها:

– لن أسكت أبدا! من جلد رقبتك! لا.. لا.. ليس هذا! النجدة.. النجدة! نعم سأسكت سأسكت.. من جلد الرقبة وعهد المشنوقين.

ثم عادت ضجة البوابة الحديدة وهي تدور على مفصلاتها مرة ثانية.. ولم يعد هناك من أعماق الكهف العميق سوى أنين بدأ يتضخم ويثقل شيئا فشيئا مثل شخص على وشك النعاس بعد ثورة غضب أو على وشك الموت.

الفصل السابع عشر

بعض اختراعات "ديديه"

بعد تلك التأوهات حدث بعض الهرج والحركات داخل المعمل الموجود في أعماق الكهف ثم اختفت كل ضجة تقريبا.

وكان كل من السيد **"هيبوليت بانارد"** والسيد **"جاسبار لالويت"** في الركن الموجود فيه داخل المدفأة الضخمة وقد فقدا أي علامة تدل على أنهما لايزالان على قيد الحياة. كانا ملتصقين بالجدار وكأنهما لن ينتزعا منه للأبد.

مع ذلك رن صوت الرجل خلف القضبان:

– يمكنكما الحضور.. فقد ذهبا!

ومع ذلك كان الصمت لايزال سائدا ثم عاد صوت الرجل خلف القضبان ليقول:

– هل أنتما ميتان؟

أخيرا في عتمة القبر المعملي الذي لم يعد مضاء الآن إلا بشعاع ضعيف يضوي خلف قضبان القفص الحديدية عند السجين.. في ذلك الضوء الشاحب شبه المعتم ظهر ظلان خجولان على حافة المدفأة العريضة.

ظهر الرأسان أولا في حذر ثم الجسدان ثم عاد كل شيء إلى الثبات في مكانه. قال **"ديديه"**:

– أوه.. يمكنكما التقدم.. إنهما لا يعودان أبدا أثناء الليل.. والفتحة مغلقة.

تحرك الشبحان مرة أخرى.. ولكن بحذر شديد وتوقفا بعد كل خطوة. ثم انزلقا بأقصى درجات الحذر. كانا واقفين على أطراف الأقدام والأذرع ممتدة وعندما اصطدما بالأثاث وردت قطعة الأثاث على الصدمة بصوت حاد بعض الشيء فقد ظل التمثالان معلقين في الهواء.

أخيرا وصلا إلى الضوء المتقاطع بسبب القضبان التي خلفها كان **"ديديه"** واقفا ينتظرهما. استرخيا منهكين على القضبان وقال صوت يشبه صوت **"هيبوليت بانارد"**:

– آه.. يا سيدي المسكين.

وسمع صوت "**لالويت**" أيضا يقول:

– لقد اعتقدنا أنهما سيقتلانك.

قال الرجل خلف القضبان:

– هل ظللتما طوال هذا الوقت داخل المدفأة؟

هذا صحيح ولا يستطيعان أن ينكرا ذلك وشرحا في كلام متشابك أن ساقيهما رفضتا أن يستجيبا لهما ويقدمان لهما خدماتهم وأنهما لم يتعودا أبدا على مثل هذه الانفعالات.. وأنهما أكاديميان وغير معدين على الإطلاق على مثل هذه المآسي الرهيبة.

قال الرجل:

– أكاديميان؟ لقد نزل هنا في يوم من الأيام ثلاثة أكاديميين. ثلاثة مرشحين قاموا بالزيارة وقد فاجأهم رئيس العصابة هنا.. أنا لم أرهم بعد ذلك أبدا.. ومن وقتها سمعت زعيم العصابة والعملاق أنهم جميعا ماتوا.. لابد أنه قتلهم مثل الذباب. كانت المحادثة هذه كلها قد تمت بصوت منخفض لا يكاد يسمع.. بصوت مكتوم وقد التصقت شفاه الثلاثة بقضبان القفص.. قال "**جاسبار لالويت**":

– يا سيدي! أليست هناك وسيلة نخرج بها دون أن يفاجئنا زعيم العصابة؟

قال الرجل:

– بالتأكيد هناك.. عن طريق السلم المؤدي مباشرة إلى الفناء.

قال السيد "**بانارد**":

– إن المفتاح الذي يفتح ذلك السلم والذي تحدثت عنه من قبل ليس موجودا على الإطلاق في الدرج.

قال الرجل:

– إنه معي في جيبي! لقد أخذته من جيب العملاق لقد تظاهرت بالسكون حتى يأتي إلى قفصي.

قال السيد "**بانارد**":

– آه يا سيدي المسكين!

– نعم.. نعم.. أنا أستحق العطف.. إن لهم وسائل رهيبة تلزمني الصمت.

زفر السيد "**جاسبار لالويت**" الذي دهش لأن الآخر لم يكن قد ناولهما المفتاح بعد:

– إذن هل تعتقد أن بإمكاننا الذهاب؟

سأل الرجل: وهل ستعودان لأخذي؟

قال السيد "**لالويت**" بطريقة رسمية مؤثرة:

– نحن نقسم لك على ذلك.

– الآخرون أيضا أقسموا ولكنهم لم يعودوا!

تدخل السيد "**هيبوليت بانارد**" من أجل شرف الأكاديمية:

– كانوا سيعودون لولا أنهم ماتوا.

– هذا صحيح! لقد قتلهم كالذباب! ولكنكما لن يقتلكما؛ لأنه لا يعرف أنكما أتيتما إلى هنا. ولكن يجب ألا يراكما.

تأوه "**لالويت**":

– لا.. لا.. لا يجب أن يرانا..

قال الرجل ناصحا وهو يمد للرجلين مفتاحا كبيرا أسود:

– يجب أن تكونا حذرين وماكرين.

ثم أعطى المفتاح للسيد "**هيبوليت بانارد**" وهو يقول له إنه يفتح الباب الموجود خلف الدينامو الذي يمكن رؤيته في الركن. وهذا الباب يفتح على درج يصعد إلى فناء صغير خلف المنزل. وهناك سيمدان بابا آخر يطل على الريف وما عليهما سوى سحب الترباس الداخلي. ومفتاح ذلك الباب الآخر يظل باستمرار في الكالون.

قال الرجل:

– لقد لاحظت كل ذلك عندما كان العملاق يقوم باصطحابي في النزهة اليومية.

سأل السيد "**بانارد**" وهو يرتجف أمام هذا البؤس وقد نسي تقريبا بؤسه هو:

– هل كنت تخرج أحيانا من قفصك؟

– نعم ولكن دائما مكبل بالأغلال.. ساعة في اليوم في الهواء الطلق عندما لا تمطر.

– آه يا سيدي المسكين!

أما بالنسبة للسيد "**لالويت**" فإنه لم يكن يفكر إلا في الذهاب وكان قد وصل بالفعل إلى الدرج ولكن بدا له أنه سمع زمجرات فوق فتراجع. وتأوه :

– الكلبان!

كرر الرجل المعتدى عليه:

– نعم.. الكلبان! هل هو مشوش ذلك الضخم هناك؟ أنكما لا تخرجان من هنا عندما أقول لكما ذلك في النهاية. يجب أن تحسبا على الأقل ساعة قبل أن يحضر إليهما "**توبي**" طعامهما.. وهكذا يمكنكما المرور فلن يكون لديهما الوقت لينبحا. عندما يأكلان لا يعرفان شيئا ولا أحدا.. هل سمعتما... عندما يأكلان..

ثم أضاف:

– يالها من حياة! ياله من وجود!

زفر "**لالويت**" وهو الذي كان بلاشك يلعن اليوم الذي واتته فيه فكرة أن يصبح أكاديميا.

– ساعة أخرى!

رد الرجل:

– أنا.. لقد كنت هنا في هذا الخير منذ سنوات!

خرج ذلك من فمه المتوحش حتي إن الأكاديميين القديم والحديث شعرا بالخجل من جبنهما. ولكن "**لالويت**" قال مؤكدا:

– هل سننفذ بجلدنا؟

بعدها أخذ السجين يبكي مثل الطفل.. ياله من مشهد!

إذن لقد شاهده "**لالويت**" و"**بانارد**" وهو في قمة بؤسه. كانت ملابسه ممزقة ومع ذلك لم تكن على الإطلاق قذرة. وكان تمزقها يدل على قيام معركة من وقت قريب. وفكر الزائران أن السجين قد أسكنه العملاق من فترة وجيزة.

ولكن ما هو إذن المصير الخارق لهذا المسكين البائس داخل القفص؟ إن الكلام الذي سمع منذ قليل يؤدي إلي تخيل أن جريمة شنعاء قد وقعت حتى إن السيد "**بانارد**" الذي يعرف من زمن طويل "**لوستالو**" العظيم لا يمكن ولا يريد أن يتوقف عندها! ومع ذلك فإن وجود الرجل خلف القضبان.. الرجل الذي يناول "**لوستالو**" العظيم التركيبات والمعادلات الكيماوية من أجل ألا يموت جوعا.. كل ذلك يثبت الجريمة لقد فهم السيد "**لالويت**" بوضوح الأمر الرهيب إنه لم يعد يتردد. أنه متأكد الآن أن "**لوستالو**" العظيم قد حبس عبقرية في قفص وأن هذه العبقرية هي التي نشرت مجده وفخاره في العالم. وبذهنه المعقد

والمحدد تصور الأمر بأبعاده النهائية والمحددة. إنه يرى من ناحية الشبكة الحديدية و"**لوستالو**" العظيم وفي يده قطعة من الخبز ومن ناحية أخرى يرى العبقرية السجينة ومعها مخترعاتها. والتبادل يتم عبر القضبان. ولابد أن "**لوستالو**" العظيم كما هو معروف عنه أنه متمسك بأن يظل وحيدا حتى يحتفظ بنفسه بهذا السر الرهيب وأن المسألة ليست مسألة أنه لا يستطيع العمل والابتكار إلا بمفرده! ولابد أنه تمسك بهذا السر الذي هو أهم من حياة الثلاثة الأكاديميين.. لابد أنهم رأوه للأسف. وكان من المنطقي أنه مستعد بالتضحية بضحيتين أخريين. وعندما يدخل المرء في طريق الجريمة لا يعرف أحد أبدا متى يتوقف! وبسبب الوضوح التام الذي تصور السيد "**لالويت**" الدراما فانه أحس برغبة عاجلة في ترك هذا المكان الخطر وأنه لن يسري عنه أبدا أن يقضي ساعة أخرى في هذا الذعر.

ومع ذلك فإن السيد "**هيبوليت بانارد**" الذي كان ذهنه مرعوبا يصارع حتى يدفع بعيدا تلك القرارات أو النتائج التي قبلها السيد "**لالويت**" دون تأخير فإن "**بانارد**" شغل وقت الفراغ الإجباري في محاولة تخليص موقف السجين الحقيقي وفهمه.

كانت الكلمات الغامضة التي نطقها السيد "**مارتان لاتوش**" التي كررتها "**بابيت**" قد عادت إلى ذاكرته المرعوبة. (هذا ليس ممكنا وإلا ستصبح أكبر جريمة على وجه الأرض) هذا ما قاله "**مارتان لاتوش**" للأسف أنه لا يجب على السيد "**بانارد**" هو أيضا أن يعرف الحقيقة المرعبة؟

كان السجين وهو خلف القضبان قد ترك رأسه يسقط بين يديه وبدا أنه يعاني من ألم غير عادي وفوق مستوى البشر. وفوقه علق مصباح المسرجة الصغير على ارتفاع لا يمكنه من الوصول إليه ويضيء الأشياء بطريقة خرافية ويعطي للأشياء المتفرقة في المخبأ شكلا خلف ظلال القضبان المتشابكة تجعل المرء لا يعتقد أنه أمام معمل الشيطان المرعب حقا بظلاله المتضخمة المنعكسة على الأنابيق وأنابيب الاختبار وأدوات إجراء التجارب الكيماوية والأفران المطفأة كان الرجل يئن مثل كتلة الخشب وسط كل هذه الكيمياء. أخذ السيد "**بانارد**" ينادي عليه عدة مرات دون أن يبدو على الرجل أنه يسمعه. وكان الكلبان أعلى لايزالان يزمجران ومع ذلك لم يحاول السيد "**لالويت**" أن يتجرأ ويفتح الباب مع أنه يرغب أن يفلت من خلاله كالسهم. عندئذ تحركت الكتلة أي الرجل ذي الهلاهيل تحركا قليلا وأطلق ظله أمام العيون المشدوهة كلاما رهيبا.

- إن الدليل على أن سر "**توت**" موجود هو أنهم جميعا ماتوا. هل فهمتم! هل فهمتم! هل فهمتم؟ لقد هبط في يوم من الأيام وهو ثائر للغاية حتى إن البيت اهتز.. وأنا كذلك كنت أرتجف! لأنني قلت لنفسي.. هذا هو الأمر! أوه هذا هو الأمر! لابد أن أخترع شيئا ما آخر! في كل مرة يطلب مني شيئا صعبا أحس بالرعب ولذلك تملكني مثل طفل صغير يشعر بالخوف في ألا يعطوه فطيرته.. ياله من بؤس.. أليس كذلك؟ ولكنه رئيس عصابة.

سمعت حشرجة وحشية في حلق الرجل ثم:

- آه.. لقد أمسك بي تماما بسره عن "**توت**" وأنا الذي لم أسمع عنه أبدا من قبل. لقد قال لي إن مشعوذا يدعي أن بالإمكان القتل بهذا السر المذكور بالأنف والفم والأذنين.. وقال لي إنه إلى جانب ذلك المشعوذ المدعو "**اليفاس**" لم أكن سوى حمار.. لقد أذلني أمام "**توبي**"! لم يكن الأمر إلا مهينا وقد عانيت منه كثيرا.. يالها من خمسة عشر يوما يالها من خمسة عشر يوما قضيناها.. وسأتذكرها لوقت طويل جدا.. وهو لم يتركني في حالي هادئا إلا عندما قدمت له "**العطور المأساوية**" و"**الأشعة القاتلة**".. و"**الأغنية التي تقتل**" وقد عرف كيف يستغلها على ما فهمت.

قهقه الرجل في صوت رهيب.. ثم تمدد بكل طوله فوق الأرض مادا ذراعيه وساقيه في إرهاق ثم زفر:

- آه.. كم أنا مرهق! ولكن يلزمني تفاصيل أريد حقا أن أعرف هل سيضيئون شمس اللعنة؟

فزع السيد "**هيبوليت بانارد**" لقد تذكر هذا التعبير الغريب والملحوظ لأحد الأطباء الذي اكتشف ندوبا على وجه "**ماكسيم دالني**" وقال في نفس واحد:

- نعم.. نعم.. إنها هذا: شمس اللعنة.. نعم إنها ضربة الشمس! هذا ما قاله الطبيب الشرعي.

- هل كانت موجودة؟ لقد انتشرت على وجهه! لقد كانت موجودة بالقوة.. هذا يا سيدي العزيز! إنه الموت بالضوء! لا يمكن إلا أن يكون كذلك. إنه كان مثل الانفجار.. أو الأفضل كما لو أن الوجه انفجر!.. ولكن الآخر ماذا كان لديه؟ لأنك تفهم يا سيدي العزيز أنه يلزمني تفاصيل.. أوه! أنني أشك كثيرا أن زعيم العصابة سيفعل أفعاله لأنني سمعته يحكي لـ"**توبي**" أن الثلاثة كانوا ميتين ولكن التفاصيل تنقصني.. في وضعي الحالي. إنهما

يتحدثان أما فيما بينهما أو أمامي.. إنهم يتكلمان.. وأحيانا ما يصمتان.. آه! إنه رئيس عصابة بلا رحمة! ولكن الآخر.. ما الذي أصابه؟ ما هي نوع الندوب؟ ما الذي وجدوه؟

رد "**بانارد**":

– ولكني أعتقد أنهم لم يجدوا شيئا.

– آه.. إنهم لم يكونوا سيجدون شيئا مع العطور الأكثر مأساوية.. لأنها لا تترك آثارا، إنه عمل صبياني... إنها توضع في خطاب وعندما يفتح.. يشمه المرء.. مساء الخير! لم يعد هناك أحد..! ولكنهم لن يستطيعوا أن يقتلوا كل الناس هكذا. وسينتهي الأمر دون شك في أن يشكوا تماما.. نعم.. نعم سينتهي الأمر بأن الناس ستشك..! لابد أنه قتل الثالث بـ...

عندئذ بدت زمجرة الكلبين تقترب جدا حتى إن الحديث تعلق.. لم يعد يسمع في الكهف سوى تنفس الرجال الثلاثة اللاهث ثم ابتعد صوت الخلاسيين أو بمعنى أصح خفت حدته. همس "**ديديه**":

– يبدو أنهما لن يعطياهما الطعام هذا المساء؟

كان قلب "**بانارد**" يدق لدرجة الانفجار منذ الكشف عن تلك الحقائق الرهيبة استطاع أن يقول:

– لقد كان هناك ندبة.. لقد كانت آثار نزيف؛ لأنهم عثروا على بعض الدم على طرف أنفه!

كز "**ديديه**" على أسنانه وجاء صوته كالفحيح:

– قسما بالله..! قسما بالله...! قسما بالله..! هذا الرجل قتل بالصوت! هناك صوت قاتل! أوه.... هذا هو الأمر فعلا.. إنه نزيف داخلي في الأذن وكان هناك سيل دموي عن طريق قناة "**استاش**".. سيل لابد أنه وصل إلى ما خلف الحنجرة ثم إلى الأنف!.. لقد وصلنا إلى الحل! وأيم الحق لقد وصلنا..!

ثم انتفض الرجل واقفا فجاة برشاقة القرد وبدا وكأنه سيقفز على القضبان ويتعلق بها مثل الرجل البهلوان. تراجع "**بانارد**" فجاة وهو يخشى أن يمسك الآخر بما تبقى لديه من شعر.

– أوه.. لا تخف! لا تخف!

سقط الرجل على مخالبه وسار إلى مخبئه المعملي في قفزات واسعة. ثم فرد جسده

وشد رأسه عاليا. وعندما مر تحت المسرجة لمح الرجلان جبهته العريضة.

– هل ترى يا سيدي العزيز!.. إن كل ذلك رهيب ولكن في نفس الوقت يمكن أن يفخر الإنسان من اختراعه!.. لقد نجح هذا!.. إنه ليس الموت من أجل الضحك الذي وضعته بداخلها لا.. لا.. إنه الموت الحقيقي الذي وضعته وحبسته داخل الضوء والصوت!.. لقد أخذ مني الكثير من الجهد والمشقة!.. ولكنكما تعلمان أنه عندما تواتي المرء الفكرة لا يحتاج الباقي إلى عمل كثيرا.. يلزم أن يحصل المرء على الفكرة والأفكار في الحقيقة لا تنقصني!.. اسالا العظيم **"لوستالو"**.. الكبير **"لوستالو"**! آه.. إن تحقيق الفكرة مثل تلك معي أمر رائع حقا.

كف الرجل عن السير ورفع سبابته وقال:

– أنتم تعرفون أنه في الوان الطيف توجد الأشعة فوق البنفسجية.. أليس كذلك؟ هذه الأشعة التي هي أشعة كيمياوية تعمل بقوة على شبكية العين وقد لوحظت حوادث خطيرة جدا حدثت بهذه الأشعة.. أوه خطيرة جدا.. والآن اسمعاني جيدا! ربما تعرفان تلك المصابيح ذات الأنبوبة الطويلة ذات الضوء الشاحب الأصفر المخضر والتي فيها يطير بخار الزئبق.. آه هل تسمعاني؟ أم لا تسمعاني؟

كان الرجل يصيح بصوت عالٍ جدا لدرجة أن **"لالويت"** المرعوب سقط على ركبتيه وهو يتضرع إلى الأستاذ الغريب الأطوار أن يسكت وتأوه السيد **"بانارد"** قائلا:

– بصوت منخفض أكثر بحق السماء!

ولكن ذل التلميذين لم ينزع من الأستاذ على الإطلاق فخره وتيهه بمزايا اختراعاته أمام هذا الجمهور المستمع غير العادي واستمر في صوت قوي وواضح وقاطع:

– إن تلك الحقول التي يتطاير فيها بخار الزئبق تنتج أضواء شيطانية فعلا. خذا.. اعتقد أن لدي منها..

أخذ الرجل يبحث وهو يقلب الأشياء رأسا على عقب ولم يعثر على شيء.

وفي أعلى كانت الكلاب لا تكف عن النباح والزمجرة لقد أحسا بالزائرين أو كما يقال شما وجود الزائرين وهو ما جعلهما لا يطاقان. فكر السيد **"لالويت"** أنهما لن يسكتا إلا واللحم في فكوكهما وهذه الفكرة بالتأكيد لم تغادر ذهنه ورغم بلاغة الأستاذ فإن ذلك لم يعد إليه الحيوية ولم يستطع النهوض من فوق ركبتيه.. يبدو أنه بعد المحنة لم يجد القوة إلا

ليتضرع إلى الله أن يسامحه على غروره الذي دفعه لأن يطلب شرفا في العادة كان محجوزا ومخصصا لأشخاص يعرفون على الأقل القراءة. استمر رجل القضبان درسه الخطير وهو يشد قامته لأعلى بارزا جبينه المغرور مقرنا كلامه بحركات قاطعة باترة!

- إن فكرتي أنا ها هي.. هاهي! بدلا من استخدام الزجاج لإحاطة المصباح استعملت أنبوبا من الكوارتز الأمر الذي أنتج عندي أشعة مجنونة فوق البنفسجية! ثم ماذا؟ ثم بعد ذلك أغلقتها.. تلك الأنبوبة التي تحتوي على بخار الزئبق. أغلقتها داخل مصباح مصمت به ملف متحرك بواسطة جهاز جمع الأشعة وتركيزها. ثم ماذا... ماذا..! إن القوة القاتلة لتلك الأشعة على العين لا مثيل لها. إن شعاعا واحدا من مصباحي المصمت الذي أستطيع أن أشغله كما أشاء يفصل فتحة قطرية تسمح لي بإدخال الضوء حسب رغبتي.. شعاع واحد فقط يكفي. إن الشبكية تتلقى ضربة رهيبة تؤدي إلى الموت في الحال عن طريق الالتهاب. ولكن لابد من العثور عليه.. لابد من التفكير في إمكانية الموت عن طريق المنع أي عن طريق إيقاف القلب فجأة وهذا هو الموت بالكبح وهو ظاهرة يا سادة التي اكتشفتها أنا أولا ثم بعدى "**براون سيكواد**".. إن مثل هذا الموت بالكبح الذي يحدث مثلا على أثر ضربة مفاجئة بحافة الكف على الحنجرة! هكذا!... هكذا! آه.. لقد كنت فخورا.. فخورا جدا بمصباحي المصمت الصغير! ولكنه أخذه مني ولم أره بعد ذلك أبدا.. لا.. أبدا.. آه!.. إنه مصباح صغير ورهيب يقتل الناس كالذباب وهو حقيقة واضحة مثل كوني الأستاذ "**ديديه**" أسلم المستمعان للأستاذ "**ديديه**" أمرهما إلى الله.. لأنه من المؤكد بوجود الكلبين والمصباح الصغير القاتل فلن ينجيهما من الموت الشيطان نفسه.. ولكن الأستاذ "**ديديه**" لم يقل شيئا عن اختراعه الثاني الذي على ما يبدو قد منحه أكبر سعادة عن كل الاختراعات السابقة وهو ما أطلق عليه اسم ثاقب الأذن، كان المصباح هو قمة الأثا في وبعبارة مختصرة كان الرعب قد اكتمل.. لقد كان الرعب الرهيب للحدث القادم قريبا ومؤكدا يبدو أنه جمد للأبد السيد "**السكرتير الدائم**" وعضو الأكاديمية الجديد .

أعلن إذن الأستاذ "**ديديه**" :

- كل هذا.. كل هذا.. إنه الفُم بجوار ثاقب الأذن العزيز.. إنه صندوق صغير لايزيد ارتفاعه عن هذا! ويمكن أن يدس في أي مكان.. داخل أكورديون لو كان المرء

حاذقا ويعرف كيف يستخدمه.. داخل بيانولا.. داخل كل ما يعزف عليه. كل من يستطيع أن يحدث نغمة نشاز.

رفع الاستاذ "**ديديه**" سبابته أكثر:

– ماذا هناك يا سيدي أكثر فظاعة بالنسبة للأذن مادام المرء موسيقيا بعض الشيء من نغمة نشاز؟ إنني أسألك ولكن لا تجيباني! لا يوجد.. لا يوجد على الإطلاق! بثاقب الأذن العزيز الذي ابتكرته وبفضل محول كهربائي سعيد جدا يسمح بإصدار موجات جديدة أكثر سعة واختراقا.. نعم يا سيدي وأيم الحق! أسرع وأكثر اختراقا من الأشعة الترددية "**الهرتزية**" فإن عزيزي ثاقب الأذن أدس النغمة النشاز وأغرسها في أم الرأس أو ما يسمى السحاء وأعرض المخ الذي معد طبيعيا لصدمة عادية إلى صدمة عنيفة تجعل المستمع لتلك النغمة النشاز يسقط صريعا وكأنه طعن بضربة سكين متموجة إذا جاز لي الكلام في اللحظة نفسها التي فيها الموجة المسلحة بالنغمة الشاذة تخترق خلسة وبسرعة في القناة الحلزونية للأذن. آه.. هذا صحيح!.. ماذا تقول في هذا؟ ماذا؟ ألا تقول شيئا في هذا؟ لا.. لا شيء على الإطلاق. وأنا كذلك لا يوجد ما يقال. كل ذلك يقتل الناس كالذباب. آه إن ذلك في الأساس مزعج لأنني سأبقى هنا طوال الحياة ولا أرى سوى أشخاص يموتون. كان من الممكن أن يأتوا لتخليصي من أسري لولا أنهم ماتوا. ولكنني لو كنت مكانهم لعرفت ماذا أستطيع أن أفعله في مثل هذا الظرف الخطير.

ردد البائسان في نفس واحد:

– ماذا؟ ماذا؟

– كنت سأرتدي نظارة زرقاء وأضع القطن في أذني.

كرر الرجلان وهما يمدان كفيهما كالشحاذين:

– نعم.. نعم.. نظارة زرقاء وقطن في الأذن.

قال الأستاذ "**ديديه**" في جدية:

– ولكن لا يوجد عندي منها.

ثم صاح فجأة:

– انتبها.. انتبها!.. اسمعا... إنها خطوات ربما كان هو.. المصباح الصغير المصمت في يد وثاقب الأذن الصغير باليد الأخرى.. آه.. آه إنني لن أدفع أي شيء مقابل

وجودكما الأرضي وأيم الحق! لا.. لا.. هذه أيضا ضربة خائبة، إنه إنقاذ فاشل خائب. ستفعلان مثل الآخرين أنكما لن تعودا أبدا.. أبدا..!

في الحقيقة كانت هناك أقدام تهبط الدرج، هناك الآن من يسير بالضبط فوق رؤوسهم وكانت الخطوات تتجه إلى الفجوة.

نهض "**بانارد**" و"**لالويت**" وهربا نحو الباب الخاص بالدرج الصغير وقد دفعتهما طاقة رهيبة ورغبة أخيرة في البقاء على قيد الحياة. تابعهما صوت الآخر.. أبدا.. لن أراهما أبدا إنهما لن يعودا أبدا..!

ثم أتتهما الرؤية الواضحة بأن أحدهم يرفع الفتحة فوقهما.. استدارا بدافع غريزي.. وقد دسا رأسيهما داخل أكتافهما وأغمضا العيون ودسا أصابعهما في آذانهما.

وكان الأمر رهيبا للغاية... لقد فضلا أن يغامرا بالموت عن طريق الكلبين أفضل. فتحا الباب وتسلقا صاعدين الدرج وهما لا يفكران إلا في ألا تلحق بهما الأشعة التي تقتل أو الأغنية التي تغتال .. ولم يفكرا حتى في الكلبين ومع ذلك لم يكن الكلبان ينبحان.

لابد أن الكلبين يأكلان.. إنهما مشغولان في التهام الطعام.. شاهد "**لالويت**" و"**بانارد**" الباب الذي أشار إليه الرجل "**ديديه**" والمفتاح في الكالون. وكل ما فعلاه هو أن قفزا نحوه..

ثم بدأ الهروب المجنون داخل الحقول.. الحقول التي عبراها جريا كالمجانين متجهين أمامهما مباشرة بالصدفة ودون تفكير داخل الظلام وهما يسقطان وينهضان ويندفعان لأبعد ما يمكن عندما غطاهما شعاع القمر.. شعاع ربما كان آتيا على أية حال من المصباح المصمت. أخيرا وصلا إلى طريق.. كانت عربة بائع اللبن تمر.. تفاوضا معه وانزلقا داخل العربة منهكين يحتضران. وقادهما الرجل إلى الجراج وهما يخفيان شخصيتهما قائلين إنهما ضلا الطريق وإنهما كانا مرعوبين من مطاردة كلبين ضخمين كانا يطاردانهما. وفي تلك اللحظة بالذات سمعا من بعيد نباح الخلاسيين عن بعد شديد وسط الليل. لابد إنهم أطلقا سراحهما.. لابد أنهما يبحثان عن الزائرين المجهولين الذين تركا وراءهما الباب مفتوحا. لابد أن "**توبي**" ينظم حملة مطاردة ولكن السيارة انطلقت بأقصى سرعتها.. وأخيرا استطاع كل من السيدين "**هيبوليت بانارد**" و"**جاسبار لالويت**" أن يتنفسا بحرية وظنا أنهما أفلتا بجلدهما وانقذا. إن "**لوستالو**" العظيم لن يعرف أبدا.. أليس كذلك؟ وحتى يوم الدين.. أن هذين الرجلين قد عرفا سره؟

الفصل الثامن عشر

سر "لوستالو" العظيم

كان شارع "**لافيت**" حالك الظلمة. في كل النوافذ تجمعت مجموعات من الفضوليين انتظارا أن يغادر كل من السيدين "**لالويت**" و"**بانارد**" دار الزوجية ليذهبا إلى الأكاديمية الفرنسية حتى كان على الأول أن يلقي خطبته. كان عيدا ومجدا للحي الذي يقيم فيه "**جاسبار لالويت**". بائع لوحات وكاتب أكاديمي وهو أمر لم يسبق أبدا أن حدث، وكانت الظروف البطولية التي كانت تجري وسطها الأحداث كما يقولون مرتبطة جدا في العقول بفكرة عكسية. لقد غزا الصحفيون الأرصفة ويعرضون في كل لحظة شاراتهم وآلاتهم التصويرية حتى لا يضايقهم أحد في مهمتهم الصحفية من كلفوا بخدمات حفظ النظام بطريقة استثنائية والتي وجد قائد الشرطة نفسه مضطرا لتنظيمها.

وكان العديد من الحاضرين كانوا قد أعدوا الخطة ليس للتصفيق والتهليل للسيد "**جاسبار لالويت**" فحسب وإنما أيضا لمصاحبته حتى نهاية كوبري الفن.. وهناك لن يستطيعوا الاستمرار في مصاحبته؛ لأنه منذ ساعات لم يعد هناك من يسمح لهم بالعبور فوق الكوبري.. وأخيرا كان في أعماق أذهانهم الجميع يتأوه من الموت الذي كان عليه أن يتوقعه.

ولما استمر السيد "**لالويت**" مختفيا فإن هذه الخشية من موته المتوقع قد ازدادت وتضخمت كلما مرت الدقائق.

وعليه فإن كل هؤلاء الناس لم يروا على الإطلاق السيد "**لالويت**" وهو يمر وانتظروا والعضو الجديد في الأكاديمية موجود هناك ومحبوس بداخلها منذ التاسعة صباحا مع السيد "**هيبوليت بانارد**" في قاعة القاموس.

لقد قضى التعيسان ليلة رهيبة وعادا في حالة يرثى لها إلى بيت ابن عم زوجة "**لالويت**" الذي لديه حانوت صغير في ميدان "**الباستيل**" وهناك انضمت إليهما

السيدة "**لالويت**" بطريقة غامضة تماما. وطبيعي أنهما قصا عليها كل شيء ثم تلا ذلك مشاورات استمرت ساعات عديدة. وكان السيد "**لالويت**" يريد أن يذهب مباشرة إلى الشرطة ولكن السيد "**بانارد**" أثر فيه ببلاغته ودموعه واتفقا على التصرف بحرص وبطريقة يمكن بها قدر المستطاع تجنب الفضيحة، وحتى لا تتعرض الأكاديمية للمهانة على الإطلاق. وتمسك السيد "**بانارد**" هكذا أن يفهم السيد "**لالويت**" أنه منذ أن أصبح أكاديميا فإن عليه واجبات لا تقع على عاتق بقية الرجال وأنه مسئول من جانبه مثل الشهداء القدامى عن بريق تلك الشعلة الخالدة التي تشتعل فوق مذبح المعهد الموقر.

والذي اعتقد كل من السيد والسيدة "**لالويت**" أن من الضروري الإجابة بأن هذه الوظيفة المجيدة بدت لهما الآن مصحوبة بالكثير من الأخطار بحيث لم يعد ما يدعو لتمسكهما بها كثيرا.

ورد عليهما السيد ""**السكرتير الدائم**"" أن الأوان فات للعودة للوراء وأنه عندما يصبح الفرد من الخالدين فإن ذلك يكون حتى الموت.

رد السيد "**لالويت**" على ذلك أيضا:

- إن هذا فعلا ما يشجيني ويحزنني! وفي نهاية الأمر لما كانوا متأكدين من أن "**لوستالو**" العظيم يجهل أنهم اطلعوا على سره الخفي فإن الموقف يمكن أن يكون أكثر أمانا واطمئنانا خاصة وأنهم علموا سر وفاة الخلفاء الثلاثة لمقعد مطران "**دابيفيل**" وتواردت بعض الأفكار أيضا على ذهن السيدة "**لالويت**" ولكنها كانت تتفجر حماسا متأثرة بالحماس الشعبي بحيث لا يمكنها أن تتنازل عن المجد والفخار. وقد تقرر أنه منذ الساعة الأولى فإن هؤلاء السادة... حتى لا يمكن إزعاجهم على الإطلاق سيذهبون ليحبسوا أنفسهم في قاعة القاموس والذي سيصبح بابها ممنوعا على الجميع وبالتالي على "**لوستالو**" العظيم.

ثم الأهم أنهم اشتروا قطنا ونظارات زرقاء وفي قاعة القاموس كان السيدان "**لالويت**" و"**بانارد**" ينتظران بعد أن وضعا القطن في آذانهما والنظارات على عيونهما.

وكانت دقائق قليلة هي التي تفصلهما عن اللحظة التي ستجد فيها ذاكرة السيد "**جاسبار لالويت**" الفرصة المشهودة لاختبار قدرتها على التذكر لشكل الحروف.

بدأت في الخارج همسات نافدة الصبر تتصاعد قال السيد "**بانارد**" فجأة وهو يفتح

الباب في تصميم:

- إنها الساعة! إنها الساعة!

ثم شبك ذراعه في ذراع زميله الجديد ولكن الباب دفع بوحشية ثم انغلق ثانية. تراجع الرجلان للخلف وهما يطلقان صرخة رعب كان "**لوستالو**" العظيم أمامهما وقال بصوت تشوبه بعض الرعشة وقد قطب حاجبيه:

- انظروا إذن! انظروا! أنتما ترتديان نظارات الآن.. أنت يا سيدي "**السكرتير الدائم**"؟ أوه.. ولكن.. والسيد "**جاسبار لالويت**" أيضا يومك سعيد يا سيد "**جاسبار لالويت**".. لقد مضى وقت طويل لم أحظ بشرف لقائك لقد تشرفت!

تلعثم "**لالويت**" بكلام غير مفهوم. وحاول السيد "**بانارد**" مع ذلك التغلب على أعصابه ويستعيد هدوءه؛ لأن اللحظة كانت خطيرة للغاية. إن ما كان يضايقه هو أن "**لوستالو**" العظيم كان يخفي في عناد إحدى يديه خلف ظهره والمرعب أكثر أن عليه أن يبدو وكان شيئا لم يحدث لأنه دون شك وعلى ما يبدو فإن "**لوستالو**" العظيم كان يخشى شيئا ما.

أصدر السيد "**هيبوليت بانارد**" سعالا جافا ثم أجاب وهو لا يترك أي حركة تفوته من العالم:

- نعم.. أنا والسيد "**لالويت**" اكتشفنا أنه يبدو علينا مظهر المنهك تماما.

خطا السيد "**لوستالو**" خطوة إلى الأمام وتراجع الآخران للخلف خطوة سألهما العالم بطريقة مفجعة:

- أين اكتشفتما هذا؟ ألم أكن في بيتي أمس؟

أصيب السيد "**لالويت**" بالشرود ولكن السيد "**بانارد**" احتج بكل ما لديه من قوة ضعيفة واهنة وهو يؤكد لـ"**لوستالو**" العظيم أنه أكثر الناس شرودا وأنه لا يعرف بالضبط ما يقوله؛ لأنه بالأمس مساء لم يغادر لا "**لالويت**" ولا "**بانارد**" باريس.

قهقه "**لوستالو**" العظيم ويده لاتزال مخفية وراء ظهره. وفجأة امتدت ذراعه للأمام أمام الرعب الشديد الذي تملك السيدين والذي أخذ كل منهما يعدل وضع النظارة بيد وباليد الأخرى يثبت القطن في أذنيه وهما يعتقدان في ظهور المصباح الصغير المصمت والرهيب أو العزيز "ثاقب الأذن".

ولكن يد العالم الكبير أظهرت مظلة مطر. صاح "**السكرتير الدائم**" :

– إنها مظلتي!

زمجر العالم بصوت يصم الآذان :

– أنا لم أقل ذلك بنفسي. أنت الذي قلتها. إنها مظلتك يا سيدي "**السكرتير الدائم**" التي نسيتها في القطار الذي نقلكما إلى "**لافارين**" وكان موظف أمين يعرفك والذي رآنا أحيانا نسافر أنا وأنت سويا أعادها إلي.. آه! آه.. يا سيدي "**السكرتير الدائم**".

كان "**لوستالو**" العظيم يزداد حماسا وهو يلوح بالمظلة الذي حاول السيد "**هيبوليت بانارد**" أن يمسك بها دون جدوى.

– آه.. آه هل أنت تعتبرني شاردا ولكني لن أكون أبدا في مثل شرودك.. إنك الذي تنسى مظلتك.. التي تحبها أكثر من شيء في العالم؟ مظلة السيد "**السكرتير الدائم**".. في الحقيقة لقد أتيت بها وكأنها مظلتي الخاصة.

ثم ألقى "**لوستالو**" العظيم بالمظلة بأقصى ذراعه عبر الحجرة. دارت المظلة حول نفسها عدة مرات في الهواء ثم ذهبت لتستقر محطمة في وجه تمثال "**أرمان دي بليسي**" "**كردينال**" "**ريشيليو**" الثابت بلا تعبير.

أمام هذا العمل المدنس لرموز الخلود بدأ السيد "**بانارد**" صرخة. ولكن وجه "**لوستالو**" كان قد أصبح شديد الإرهاب حتى إنه لم يستطع أن يتم الصرخة وظلت على وضعها ما بين القوة وعدم القوة داخل حلق "**السكرتير الدائم**".

كان وجه الشيطان أمامه يسد عليه دائما المنفذ إلى الباب وهو يلوح بذراعيه مثل مدير المسرح أو رجل المرور وكانه يريد أن يقنعه أن له أجنحة.. لقد كان هذا العمل محزنا بالنسبة لعالم كبير مثل "**لوستالو**" العظيم.. ولو رآه الناس لاعتقدوا أنه مسه الجنون.

فكر السيد "**لالويت**" والسيد "**بانارد**" أنه الشيطان. وكان كلما تقدم خطوة تراجعا مثلها. صاح "**لوستالو**" ببريق بدأ يخبو شيئا فشيئا :

– هيا..! هيا..! يا مجموعة لصوص! لصوص لسري! هل كان من الضروري أن يهبطا إلى كهفي؟ وأثناء عدم وجودي هناك مثل شخصين قليلي التربية والأدب أو مثل شر ذمة من اللصوص! وربما كان من الممكن أن تشويا.. هل تعرفان ذلك؟ والكلبان يمكن أن يلتهماكما مثل العصافير أو يقتلاكما مثل الذباب! هكذا يتكلم "**ديديه**"..

لقد رأيتما.. "**ديديه**"؟ يا شرذمة من اللصوص! اخلعا إذن نظارتيكما أيها الأبلهان.

كان "**لوستالو**" يرغي ويزبد. مسح فمه وكذلك العرق من على جبينه بيديه بسرعة وكأنه يصفع نفسه:

- ولكن.. انزعا إذن نظارتيكما! (كان من المفهوم بالتأكيد أن الآخرين لم ينزعا النظارات).. كل هذا اللغو والكلام المجنون الصادر عن "**ديديه**"! هل وضعتما أيضا قطنا في أذنيكما؟ وما قاله عن أن جميع اختراعاتي حصلت عليها مقابل قطعة من الخبز.. وسر "**توت**" أليس كذلك؟ والضوء الذي يقتل؟ والعزيز الغالي "ثاقب الأذن" الصغير كل هذا الجنون! هذا الجنون كله! جنون "**ديديه**" ما الذي استطاع إذن أن يقوله لكما؟ العزيز الغالي المجنون.. المسكين العزيز المجنون..!

ثم ألقى "**لوستالو**" العظيم بجسده على مقعد وهو ينشج بطريقة يائسة حتى إن الآخرين أحسا بصدمة في القلب. وذلك التعس الضخم الذي بدا لهما من دقائق كأكبر مجرم عرفه التاريخ إلا أنهما دهشا إيما دهشة عندما رأياه يستحق الشفقة. نعم لقد دهشا للغاية عندما رأياه يبكي هكذا ،ولكنهما لم يقتربا منه إلا بحذر شديد وهما لايزالان يحتفظان بالنظارة على عينيهما وكان "**لوستالو**" ينشج ويتأوه:

- العزيز المسكين الغالي! الطفل المسكين.. ابني! إنه ابني يا سادة! ابني.. هل تفهمان الآن؟ ابني الذي هو مجنون.. مجنون خطر.. مجنون لأقصى درجات الجنون. إن السلطات لم توافق على أن احتفظ به في بيتي إلا كسجين.. وفي يوم من الأيام انتزعوا من بين يديه فتاة صغيرة أوشك أن يخنقها بغرض أن يأخذ حنجرتها حتى يستطيع أن يغني أفضل.. أوه لا يجب أن يقال له ذلك.. إنه ابني الوحيد!.. إنه سيأخذونه مني..! أو سيحبسونه من أجلي...إنهم سيسرقونه مني.. ما عليكما إلا أن تتكلما حتى ينتزعوا مني ابني.. ليس عليكما إلا أن تتكلما حتى يسرقوا ابني.. يا شرذمه من لصوص الأطفال!

ثم بكى... وبكى..

أخذ السيد "**بانارد**" والسيد "**لالويت**" يرقبانه وهما مسمران في مكانيهما وقد صرعهما كشف الحقيقة إن ما سمعاه في التو واللحظة وصدق هذا الكلام اليائس شرح لهما السر الغامض والفريد من نوعه والمؤلم للرجل خلف القضبان.

ولكن ماذا عن القتلى الثلاثة؟

وضع السيد "**بانارد**" يدا خجلة على كتف "**لوستالو**" العظيم الذي لم تنقطع دموعه عن الانسكاب. أعلن السيد "**السكرتير الدائم**":

– إننا لن نقول شيئا. ولكن أمامنا يوجد ثلاثة رجال وعدوا أيضا ألا يبوحوا بأي شيء.. ثم ماتوا..!

نهض "**لوستالو**" ومد ذراعيه وكأنه يريد أن يزيل كل آلام العالم:

– لقد مات هؤلاء التعساء! هل تعتقدان إذن أنني لم أرتعب أكثر منكما من تلك الوفيات؟ يبدو أن القدر اتخذني ضحية له. لقد ماتوا؛ لأنهم لم يكونوا في صحة جيدة. ماذا تريدون مني إذن أن أفعل؟

ثم توجه إلى "**لالويت**":

– ولكنك أنت يا سيدي.. أنت... قل لي! هل لديك صحة جيدة؟

وقبل أن يتمكن السيد "**لالويت**" من الرد اجتاح الغرفة الزملاء الذين نفد صبرهم وجاءوا بحثا عن "**السكرتير الدائم**" وبطله.

كان الفناء والقاعات ودهاليز المعهد كلها ممتلئة بأقصى ما يمكن أن يتصوره المرء من حماس.

ورغم القطن الذي حشره السيد "**لالويت**" في أذنيه فإنه لم يستطع أن يفلت من كل هذا الضجيج ضجيج الفخر. وباختصار.. بعد الاعتراف الأخير لـ"**لوستالو**" يستطيع هو أن ينتقل إلى صف الخالدين في سلام ودون تأنيب للضمير. تركهم يحملونه حتى مدخل القاعة.. قاعة المؤتمرات العامة.. وهناك توقف لحظة بسبب الزحام ووجد نفسه وجها لوجه مع "**لوستالو**" نفسه قدر قبل أن يتقدم أكثر أن عليه أن يتخذ أقصى درجات الحيطة. ثم مال على العالم وقال له:

– لقد سألتني إن كنت بصحة جيدة أليس كذلك؟ وشكرا لأنها ممتازة وأعتقد جازما في كل ما حكيته ولكن على أية حال أتعشم ألا أموت على الإطلاق ؛لأنني اتخذت احتياطاتي. لقد كتبت بنفسي قصة كل ما رأيناه وسمعناه عندك.. قصة ستنشر فور وفاتي..

تفرس "**لوستالو**" في فضول في السيد "**جاسبار لالويت**" ثم رد عليه ببساطة:

– هذا ليس صحيحا.. لأنك لا تعرف القراءة.

الفصل التاسع عشر

انتصار "جاسبار لالويت"

لم يعد السيد "**جاسبار لالويت**" يستطيع التقهقر أكثر من هذا وهو لايزال يحافظ على كرامته. لقد لمحه الجمهور الموجود في القاعة فعلا.. أخذت صيحات التبجيل التي تصم الآذان تحيي دخوله وكانت رؤية السيدة "**لالويت**" وهي في الصفوف الأولى قد أعطت المحتفى به بعضا من شجاعته الهاربة، ولكن في الحقيقة كان السيد "**لوستالو**" قد وجه إليه ضربة رهيبة. كان لايزال يترنح منها.. كيف استطاع ذلك الرجل "**لوستالو**" أن يعرف أنه هو "**لالويت**" لا يعرف القراءة؟ مع أن هذا السر تم الاحتفاظ به بكل حرص وعناية. ولا يمكن أن يكون "**بانارد**" هو الذي تكلم وأفشى السر! كما وأن "**اليفاس**" قد أظهر سعادة كبرى وهو يرى في الأكاديمية رجلا لا يعرف القراءة لينضم عن طريق إفشاء السر الرهيب. أما "**أيلالي**" فقد كانت قبر الأسرار. إذن؟ كيف؟ كيف؟ لقد ظن أنه أمسك بـ"**لوستالو**" وأوقع به وها هو "**لوستالو**" في آخر لحظة يظهر له مدى عجزه. لكن ربما كان "**لوستالو**" لم يضع في خطته على أيه حال أي نية سيئة..ألم يكن أبا تعسا يائسا وعالما مرموقا لايشكو منه أحد؟ من الواضح الجلي أن هذا هو حاله فما الذي يخشاه إذن السيد "**لالويت**"؟ خاصة وهو مرتد نظارة زرقاء وواضع قطنا في أذنيه!

انتصب السيد "**لالويت**" أمام المديح والتبجيل الذي استقبله وتبعه في كل خطوة يخطوها، كان يريد أن يبدو مزهوا مثل كولونيل روماني بعد النصر وكذلك مثل الديك الرومي وقد نجح في ذلك. وكان هذا بالذات بفضل النظارة الزرقاء التي أخفت بقية التعب عن عينيه.

رأى بجواره "**لوستالو**" العظيم وهو شديد الحزن والهدوء والذي بدا وكأنه على بعد فراسخ كثيرة من مكان الاجتماع. وقد أحس فجأة بالاطمئنان فعلا. وعندما أعطيت له الكلمة بدأ خطبته في رزانة شديدة. وهو يقلب الصفحات وكوعه مستدير وكأنه يقرأ.. جيدا.. كانت كل ذاكرته الحديدية حاضرة.. قوية.. وممتازة حتى أنه بدأ رثاءه

ومديحه وهو يفكر في شيء آخر. في الحقيقة كان يفكر كيف أن "**لوستالو**" العظيم عرف أنه لا يعرف القراءة! وفجأة ضرب جبينه وصاح وهو وسط خطبته:

- لقد وصلت إليها!

عند هذه الحركة غير المتوقعة والصرخة التي لا تفسير لها امتلأت القاعة بالهتاف. كان الجمهور يقفز عند أي حركة غير متوقعة وذلك من شدة القلق وينهض ويميل نحو الرجل... وهم يتوقعون أنه سوف يهلك مثل الباقين السابقين.

ولكن بعد أن سعل عمدا حتى يسلك زوره أعلن السيد "**لالويت**":

- ليس هناك شيء.. يا سادة.. إنني سأستمر! كنت إذن أقول.. ماذا كنت إذن أقول؟ آه! لقد كنت إذن أقول إن ذلك المسكين "**مارتان لاتوش**" الذي صعدت روحه إلى السماء قبل موعدها..

آه.. كم كان جميلا وهادئا الأب "**لالويت**"! واثقا بنفسه الآن. أوه.. نعم تمام الثقة! كان يتحدث عن موت الآخرين بهدوء الرجل الذي يجب ألا يموت.. صفقوا له حتى أوشك زجاج النوافذ أن ينفجر.. لقد كان هذيانا والنساء بالذات أصبن بالجنون! انتزعن قفازاتهن من قوة التصفيق بأيديهن الصغيرة وكسرن المراوح وكن يصدرن صيحات قصيرة حادة من الحماس والسعادة والرضا. لقد كان الأمر غير عادي بالنسبة لحفل استقبال أكاديمي. كانت السيدة "**لالويت**" مسنودة بواسطة سيدتين صديقتين مخلصتين وكان من الممكن ملاحظة على وجهها دمعتين حقيقيتين تلمعان من السعادة. إذن السيد "**لالويت**" يلقي خطابه بطريقة ممتازة! لقد استطاع التحكم في الكلمة واللغز ولم يستطع شيء أن يوقفه بعد ذلك في خطابه، كان يصدر بعض التأثيرات بصوته ويديه ووسطه. ولهذا صاح: لقد وجدتها! قال في نفسه: لقد وجدتها لأنني في اليوم المشهود الذي ذهبت فيه بمفردي إلى "**فارين سانت هيلير**" والذي هربت فيه من بيت "**لوستالو**" وهربت من "**شارينتون**".. في ذلك اليوم وصلت إلى المحطة في آخر لحظة لأقفز في القطار الذي يعود إلى باريس.

وفي المقصورة كانت هناك سيدة كانت تطلق صيحات تشبه صيحات الطاووس. وكانت مقصورة مغلقة لا تطل على الدهليز ورأيت أنها اعتقدت أنني سأقتلها. وكلما أردت أن أهدئ من روعها ارتفع صراخها. وفي المحطة التالية استدعيت رئيس القطار

الذي لامني على أنني صعدت إلى مقصورة مخصصة للنساء فقط. ثم أشار إلى لوحة وهو يعلنني أنه سيحرر لي محضر جنحة وأنني سأتعرض لقضية كبيرة.. ولحسن الحظ كان معي في جيبي بطاقتي العسكرية التي بواسطتها استطعت أن أثبت بها أنني لا أعرف القراءة والكتابة.. وهكذا لابد أن ذلك الموظف هو نفسه الذي عثر على مظلة "**بانارد**" وسلمها للسيد "**لوستالو**".. ومن أسئلة "**لوستالو**" حول شخصيتي لابد أن الموظف أجاب بأن السيد "**السكرتير الدائم**" يسافر مع رجل يجهل القراءة.

ثم استأنف خطابه بصوت عالٍ:

– سادتي! لقد كان صاحب النيافة مطران "**دابيفيل**" طفلا من الشعب مثلي.

في هذه النقطة من الخطاب عبر صبي جديد يعمل حاجبا في قاعة الاستقبال.. لأن القدامى لم يكونوا يحبون هذا المسلك الذي يتحدث عن السوابق المخجلة.. عبر الصبي الوسط على قدميه وفي يده خطاب.

عندما شاهد الجمهور ذلك الخطاب سرى بينهم انفعال غير معقول.. لقد اعتقدوا أن ذلك الخطاب أيضا موجة للمرشح وفي الحال رنت الصرخات:

– لا.. لا! لا خطابات! لا تفتحه.. لا تجعلوه يفتحه!

ثم صدرت صرخة تقطع نياط القلوب كانت صادرة من السيدة "لالويت".

أدار السيد "**لالويت**" رأسه جانبا ناحية الحاجب ورأى الخطاب.. لقد فهم.. ربما تطارده العطور التي تقتل.. وأخيرا سمع صرخة اليأس الصادرة من السيدة "**لالويت**" عندئذ شد جسده على أطراف أصابع قدميه وأصبح أكثر طولا مما كان عليه من قبل وتحكم فعلا على الأقل في قوته الذهنية والأخلاقية في ذلك الجمع المحتشد وأشار بأصبعه الذي لم يكن يرتجف إلى الخطاب القاتل وقال:

– آه! لا.. ليس معي.. إن ذلك لن ينجح لأنني لا أعرف القراءة.

حدث انفجار حبور واستبشار مجنون! آه! على الأقل كان هذا الحبور روحاني.. شجاع وروحاني. إنه لا يعرف القراءة لقد كانت العبارة حبيبة للقلوب. كان انتصار "**لالويت**" كاملا. جاء زملاؤه ليشدوا على يده بنشاط متوحش وانتهت الجلسة في جو من الحماس الرائع كان الانتصار من الروعة لدرجة أنه في النهاية لم يمت السيد "**جاسبار لالويت**" وأن الرجل الذي لا يعرف القراءة استطاع في النهاية أن يجلس على المقعد

لصاحب النيافة مطران "**دابيفيل**" دون أن يصاب بالتسمم من أي نوع.

لم يكن الخطاب موجها على الإطلاق للسيد "**لالويت**" وعادت السيدة "**لالويت**" إلى رشدها لتجد زوجها حيا يرزق ،وبدا لها أجمل الرجال بعد وقت من ذلك الحدث رزقا بعد ستة أشهر بولد صبي سموه "**أكاديموس**" أما بالنسبة لـ"**لوستالو**" العظيم فقد عاني بعد فترة من الأحداث كنا فيها مشغولين -عاني من آلام مبرحة عندما فقد ابنه- لقد مات "**ديديه**" دعي السيد "**جاسبار لالويت**" والسيد "**هيبوليت بانارد**" إلى مراسم الدفن الذي تم في نفس المساء شبه خفي.

وفي المقابر احتار السيد "**لالويت**" من وجود شخصية غامضة الذي كان خلف المقابر يتسلل ليس ببعيد عن "**لوستالو**" العظيم. وعندما سقط العالم على ركبتيه اقترب الشخص المجهول ومال عليه وكأنه يريد أن يسمع ويسأل ذلك الألم. كان وجه الرجل المجهول غير مرئي؛ لأنه كان مغطى بقبعة ومعطف. وظل السيد "**لالويت**" يتساءل طوال فترة المراسم من هو إذن هذا الشخص؟ لأنه بدا له أنه من الهيئة العامة أنه ليس غريبا عليه..

وفي النهاية اختفى المجهول وسط ظلام الليل. عاد السيد "**السكرتير الدائم**" والسيد "**لالويت**" إلى المجلس. وداخل القطار الذي أوشك السيد "**لالويت**" مرة ثانية أن يصعد إلى مقصورة "للنساء فقط" وهو يعتقد أنه يصعد مقصورة "للمدخنين فقط"، أخذ الأكاديميان يثرثران.

قال السيد "**هيبوليت بانارد**":

- يبدو أن هذا المسكين "**لوستالو**" يعاني من الحزن.

رد عليه السيد "**لالويت**" وهو يهز رأسه:

- نعم.. نعم.. من الحزن الشديد.

*****

بعد سنتين من ذلك ذهب السيد "**لالويت**" إلى الأكاديمية عابرا كوبري الفن متأبطا ذراع السيد "**هيبوليت بانارد**". فجأة توقف في مشيته. وقال:

- انظر إلى الرجل ذي المعطف!

ساله السيد "**السكرتير الدائم**" في دهشة:

– وماذا في ذلك؟

– ألا تتعرف على ذلك الشكل؟

– لا وأيم الحق!

– لقد سبق أن أدهشك من قبل يا سيدي "**السكرتير الدائم**" .. إن ذلك الرجل لم يترك "**لوستالو**" العظيم خطوة واحدة في ليلة مراسم دفن ابنه في المقابر. وأعتقد أنني لم أخطئ عندما ظننت أنه سبق لي أن شاهدته في مكان ما.

استدار الرجل ذو المعطف في تلك اللحظة صاح "**لالويت**" :

– إنه السيد "**اليفاس دي لانوكس**" .

لقد كان فعلا الساحر المجوسي الذي تقدم نحو عضوي مجمع الخالدين وشد على يد "**لالويت**" الذي صاح:

– هانت ذا! ولم تقم لنا بزيارة صغيرة! إن السيدة "**لالويت**" لابد كانت ستسعد لوأتيت للعشاء.. شرفنا إذن بالعشاء عندنا بلا تكليف في إحدى الليالي في منزلنا.

ثم استدار نحو السيد "**بانارد**" وقال:

– سيدي "**السكرتير الدائم**" العزيز أقدم لك السيد "**اليفاس دي سانت ايلم دي تايبور دي لانوكس**" والذي أزعجنا خطابه زمنا طويلا في وقت ما.. وفيما عدا ذلك.. ما إذا أصبحت يا سيدي "**دي لانوكس**" ؟

– ولكني لازلت دائما أبيع فراء الأرانب يا عزيزي الأكاديمي.

ابتسم ذلك الرجل الذي كان في يوم من الأيام رجل النور أو ما يسمى إعلانيا رجل الأضواء. ساله السيد "**لالويت**" بشجاعة:

– وأنت ألم تندم أبدا على الأكاديمية؟

رد "**اليفاس**" في رقة:

– لا مادمت أنت فيها.

أخذ السيد "**لالويت**" بهذه الكلمات باعتبارها مجاملة رقيقة وشكره.

تنحنح السيد "**السكرتير الدائم**" فقال السيد "**لالويت**" :

– بالمناسبة.. تصور أنني عندما رأيتك ودون أن أتعرف عليك وقتها قلت للسيد

"**السكرتير الدائم**" هذا أمر غريب! ولكن يبدو لي أنني رأيت هذا الشكل في مراسم دفن ابن "**لوستالو**" العظيم.

قال "**اليفاس**":

– لقد كنت هناك.

سأل السيد "**بانارد**" الذي لم يكن قد تكلم حتى الآن:

– هل كنت تعرف "**لوستالو**" العظيم؟

رد السيد "**اليفاس دي لانوكس**" بلهجة غير ودية على الإطلاق والذي بدا أن محدثيه قد ضايقاه:

– لا أعرفه معرفة شخصية على الإطلاق!.. لا لم أكن أعرفه شخصيا ولكن اتيحت لي الفرصة أن أنشغل به عقب تحقيق رأيت أنه من الواجب إجراؤه من أجل رضائي الشخصي. له صلة ببعض الأحداث المعينة شغلت الرأي العام في وقت كان الناس يموتون كثيرا في الأكاديمية يا سيدي "**السكرتير الدائم**".

عندما سمع السيد "**السكرتير الدائم**" هذا الكلام تمنى لو أن كوبري الفن انفتح ليضع نهاية لهذا الحديث الذي ذكره بالساعات الحزينة المؤلمة في حياته الشريفة والحزينة. قال بسرعة وهو يتلعثم:

– نعم.. وأتذكر أنني أيضا رأيتك في المقابر لقد كان السيد "**لوستالو**" العظيم يعاني شجنا بالغا لوفاة ابنه.

أضاف السيد "**لالويت**" في الحال:

– إن شجنه لم يخف على الإطلاق ولم ينته.. إننا لم نره بعد ذلك أبدا بعد الحداد القاسي وهو تركنا نعمل في هدوء في القاموس.. آه يا للرجل المسكين لقد تلقى صدمة عارمة حقا!

رد فجأة رجل الأضواء:

– صدمة عارمة! صدمة عارمة! لدرجة أنه منذ وفاة "**ديديه**" لم يخترع شيئا على الإطلاق.

ثم مال بوجهه النبيل إلى الأكاديميين المرتجفين بعد ذلك.. بعد أن نطق السيد "**اليفاس دي سانت ايلم دي تايبور دي لانوكس**" تلك الكلمات الرهيبة.. استدار

وأعطى ظهره للمعهد المرموق واختفى عند نهاية كوبري الفن ومع ذلك استند كل منهما على الآخر وكان كلا منهما يدعم الآخر واتجه السيدان "**جاسبار لالويت**" و"**هيبوليت بانارد**" في بطولة بخطواتهما نحو عتبة دار الخالدين.

*****

طالما كانا في الخارج لم ينطقا كلمة واحدة ولكن ما إن أصبحا بالداخل في مكتب السيد "**السكرتير الدائم**" حتى استعاد السيد "**لالويت**" قدراته ليعلن أن ضميره الذي أصبح صافيا بصفة نهائية بكلمات السيد "**اليفاس دي لانوكس**" فإن ذلك لن يسمح له بالصمت المذنب وقد حاول السيد "**بانارد**" بدموعه وتوسلاته أن يجعله يصمت ودافع بميزة الشك التي يمكن أن يتمتع بها السيد "**لوستالو**" وذلك من أجل شرف الأكاديمية. ولكن السيد "**لالويت**" لم يعد يرغب في سماع أي شيء آخر. صاح:

– لا.. لا.. إنه "**مارتان لاتوش**" الذي كان على حق! إنه هو الذي اكتشف الحقيقة! عندما قال "لا يوجد جريمة أشنع من هذه على الأرض!"

رد السيد "**بانارد**" وهو ينفجر بدوره:

– بل هناك.. هناك ما هو أفظع!

– ما هي يا سيدي؟

– وهي جريمة إدخال عضوية الأكاديمية لشخص ما لا يعرف القراءة.. هذه الجريمة أنا الذي ارتكبتها.

ثم أخذ يرتجف في غضب سام وقال:

– هيا أبلغ عني إذا كنت أنت تجرؤ على ذلك؟ كانت هذه أول مرة منذ سن التاسعة التي فقد فيها السيد "**هيبوليت بانارد**" أمه التي استخدم فيها اسم المخاطب المفرد.

كانت هذه الألفة المهددة التي بدلا من أن تهدئ من النقاش فقد أشعلت وطيسه ووقف كل من الخالدين وجها لوجه مثل ديكين في معركة. عندما طرق الباب فأعادهما إلى جادة الصواب والتصرفات اللائقة.

ترك السيد "**لالويت**" نفسه يسقط جالسا على مقعد ذي مساند عند ركن المدفأة وذهب السيد "**بانارد**" ليفتح الباب. كان ذلك هو البواب الذي أحضر ربطة ضخمة إلى

حد ما والتي كان البعض قد أوصوا عليه مشددا بأن عليه أن يضعها بين يدي "**السكرتير الدائم**" شخصيا. ذهب البواب وانتبه السيد "**بانارد**" إلى الرسالة. ثم قرأ أولا على المظروف هذه الكلمات إلى السيد "**السكرتير الدائم**". ويفتح في جلسة خاصة للأكاديمية الفرنسية.

تعرف السيد "**بانارد**" على الكتابة وارتجف.

ساله "**لالويت**":

– ماذا هناك؟

لكن السيد "**السكرتير الدائم**" كان مثارا لدرجة أنه لم يرد عليه وكان تائها في الحجرة كما لو كان لا يعلم ماذا يفعل.

فجأة قرر ونزع الأختام ثم أخرج كراسة سميكة على رأسها قرأ "هذه اعترافاتي"!

أخذ السيد "**لالويت**" يراقبه وهو يقرأ ولا يفهم شيئا بينما الآخر يقلب صفحات ذلك الملف الغامض واحدة تلو الأخرى. بدأ وجه الأكاديمي المبجل يفقد شيئا فشيئا لونه العادي المائل للأصفرار والذي تعود أن يترجم عن انفعالاته المحزنة والتي اختزنها ذلك القلب المخلص الوفي لأكثر المؤسسات العلمية مجدا وفخارا.

لقد أصبح "**بانارد**" أكثر شحوبا من الرخامة التي سجل عليها أسماء الخالدين من أعضائه والتي ثبتت على عتبة المدخل الخاص بقاعة القاموس.

ورأى السيد "**لالويت**" السيد "**بانارد**" فجأة وهو يلقي بحركة متأنية بالملف إلى النيران بعد ذلك حضر المدعو "**بانارد**" وهو جالس بلا حركة عملية حريق الملف واتجه إلى المتآمر معه ومد له يده وقال له:

– بلا حزازية ولا حقد يا سيد "**لالويت**" لن نتجادل ولن نتشاجر أبدا بعد الآن... أنت الذي عندك الحق. لقد كان "**لوستالو**" العظيم بائسا كبيرا. لننسه فقد مات. لقد دفع دينه هو.. ولكن أنت يا عزيزي "**جاسبار**" متى تدفع دينك؟ وعلى أية حال ليس من الصعب أن تتعلم ألف... باء.. تاء.

تمّت بعون الله

مصرف في لبنان وبالدولار الأميركي. ودار البشير لا تتحمل مسؤولية إرسال أي مبالغ نقدية داخل الرسائل.

ويجب أن يُكتب على الشيك عبارة (يُصرف للمستفيد الأول فقط).

تُرسل الطلبات على العنوان التالي :

دار البشير ص.ب 13-5329 بيروت – لبنان.

وهذه قائمة بأسماء ا لكتب التي صدرت حتى الآن مع أسعارها بالدولار الأميركي شاملة أجور البريد.

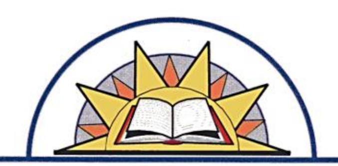
ثمن أي كتاب 7 دولارات أميركية.

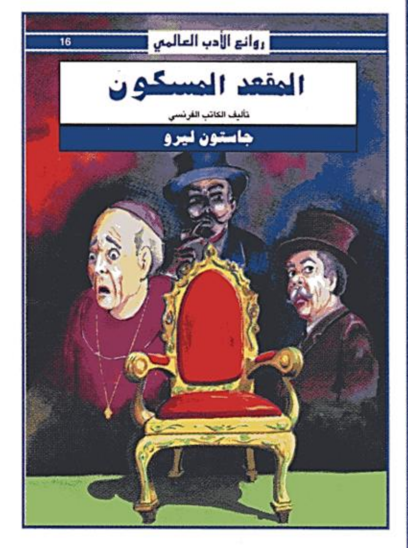
إدفع ثمن خمس (5) كتب واحصل على السادس (6) مجاناً.

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١	أوديب	أندريه جيد
٢	الخمسمائة مليون ثروة البيجوم	جول فيرن
٣	الحرب والسلام	ليو تولستوي
٤	مدام بوفاري	جوستاف فلوبير
٥	سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
٦	البؤساء	فيكتور هوجو
٧	الثأر للوطن	جون شتينبك
٨	الخاطئة	سومرست موم
٩	الأمير	نيكولاس ماكيافلي
١٠	الإلياذة	هوميروس
١١	الكونت دي مونت كريستو	ألكسندر ديماس
١٢	أرواح هائمة	سومرست موم
١٣	المقامر	فيودور دوستوفسكي
١٤	عاشقات في الخريف	ستيفان زفايج
١٥	ديكاميرون	جيوفاني بوكاشيو
١٦	إعترافات جان جاك روسو	جان جاك روسو
١٧	صافو	ألفونس دوديه
١٨	دم... وخمر	ليو تولستوي
١٩	الآلهة عطشى	أناتول فرانس
٢٠	مياه الربيع	إيفان ترجنيف

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
٢١	أنّا كارنينا	ليو تولستوي
٢٢	رسول القيصر	جول فيرن
٢٣	حذار من الشفقة	ستيفان زفايج
٢٤	ضحكة في الظلام	فلاديمير نابوكوف
٢٥	مرتفعات ويذرنج	إميلي برونتي
٢٦	الخطيئة الأولى	البرتو مورافيا
٢٧	جين إير	شارلوت برونتي
٢٨	الدكتور جيفاجو	بوريس باسترناك
٢٩	المسبحة	فلورنس باركلي
٣٠	رجال ونساء	مكسيم جوركي
٣١	حياة	جي دي موباسان
٣٢	ليالي بلزاك	أونوري دي بلزاك
٣٣	المقعد المسكون	جاستون ليرو
٣٤	الطريق إلى بئر سبع	إيثيل مانين
٣٥	غرام سوان	مارسيل بروست
٣٦	الظمأ... للحب	ميكا والتاري
٣٧	هل تحبين "برامس"؟	فرانسواز ساجان
٣٨	بيللا دونا	روبرت هيتشنز
٣٩	قصة مدينتين	تشارلس ديكنز
٤٠	قلوب ضالة	رابندرانات طاغور
٤١	رحلات جاليفر	جوناثان سويفت
٤٢	ماري ستيوارت	فردريك شيللر
٤٣	موبي ديك	هيرمان ميلفيل
٤٤	كبرياء وهوى	جين أوستن
٤٥	روبنسون كروزو	دانيال ديفو
٤٦	مغامرات "توم ساوير"	مارك توين
٤٧	ذات الثوب الأبيض	ويلكي كولنز
٤٨	فن الحياة	أندريه موروا
٤٩	قضية بليرو	ألفونس ألي

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
٥٠	المومياء	تيوفيل جوتيه
٥١	الغيرة	جي دي موباسان
٥٢	شارلوك هولمز	السير أرثر كونان دويل
٥٣	الإبن الضال	هنري بوردو
٥٤	رحلة إلى الهند	إدوارد مورجان فورستر
٥٥	المخطوف + أولالا ساكنة الجبال	روبرت لويس ستنفنسون
٥٦	غانية أطلنطا	بيير بنوا
٥٧	الأمير والفقير	مارك توين
٥٨	آلام فرتر	جوته
٥٩	القلعة	أرشيبالد جوزيف كرونين
٦٠	الجريمة	جورج برنانوس
٦١	حياة في لندن	هنري جيمس
٦٢	دون كيشوت	ميجويل دي سيرفنتس
٦٣	الخالدون	ديل كارنيجي
٦٤	مولن العظيم	ألان فورنيه





"جاستون ليرو"

١٨٦٨ - ١٩٢٧

كاتب فرنسي، ووالد المخبر الشهير "روليت أبيل" تمزج رواياته ببراعة بين الدعابة واللغز.

هجوم على الخالدين! رعب تحت القبة! لم يعد لدى الأكاديمية إلا ٣٩ مشهوراً؛ لأن كل من يرغبون في إرث "دربڤيل" كانوا يعانون الموت المفاجئ مع نطق خطبة الاستقبال:

مصادفة؟

لعنة؟

إن سبل الخلود مغلقة! "إيبلوت باتار" - السكرتير الدائم- لم يعد يدري إلى من يلجأ؟ وهو متحير بين سخرية الموقف ووسواس زيادة قائمة الجوائز هذه. عندما قدم "جاسبار لالويت" - تاجر الأنتيكات- ترشيحه كان إحساسه بسكون الألم كبيرا...

للأسف! كان هناك شيء ما ينتزع الشعر إذ كانت سن الثلاثة والتسعين تتطلب المزيد. لأن الجمعية الشهيرة يمكن أن تتعرض للفضيحة. أوه! بالتأكيد فضح "جاسبار" سر "توث" ولغز الأغنية الذي يقتل.

لكنه يمثل أيضا حالة مزعجة...

أيها السادة، إذا عرفتم...".


ISBN 9953-443-46-7
9 789953 443461